

الشيخ الإمام داعية الإسلام
بمكة المكرمة مؤيد الشيخ الأديب

التوبة

مرفوعة

قال شرف إعداده ورجسته

بمكة المكرمة مؤيد الشيخ الأديب

مكتبة التراث الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة
لِلنَّاشِر

الطبعة الأولى
جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ - يوليو ٢٠٠١ م



مكتبة الأمانة الإسلامية

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١١٥١٠ / ٢٠٠١

الترقيم الدولي I.S.B.N. 8 - 245 - 260 - 977

Email: abdallahaggag@hotmail.com

Isamic Turath Book Shop ☎ 3911397 - 3925677 فاكس: 3913406

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ ﴾ [غافر : ٣] .

وصلّى اللّهُمّ وسلّم على سيدنا محمد نبي التوبة ^(١) وعلى آله وأزواجه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين .. ثم أما بعد :
 روى عن الأغر المزني وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم قَالَ : « إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي . وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةً مَرَّةً » ^(٢) .

وعن أبي بُرْزَةَ قَالَ : سَمِعْتُ الْأَغَرَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُحَدِّثُ ابْنَ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَيُّهَا

(١) ورد هذا الاسم في حديث مسلم [١٦٦٠] وفي حديث أبي داود [٥١٦٥] . قال صاحب تحفة الأحوذى : قال في مجمع البحار : نبي التوبة لأنه تواب يستغفر كل يوم سبعين ، أو مائة ؛ وقال فيه أيضاً : نبي التوبة والرحم ؛ أى : جاء بقبولها بالقول والاعتقاد ، لا يقتل الأنفس ، وجاء بالتراحم نحو : ﴿ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] أهـ .

(٢) أخرجه مسلم [٤١/٢٧٠٢] .

النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ . فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ » ^(١) .
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَابَ قَبْلَ
أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ » ^(٢) .

قال الإمام النووي : قوله ﷺ : « إنه ليغان على قلبي وإني
لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » قال أهل اللغة : الغين بالغين
المعجمة والغيم بمعنى والمراد هنا ما يتغشى القلب .

قال القاضي : قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي
كان شأنه الدوام عليه فإذا فتر عنه أو غفل عُدَّ ذلك ذنباً
واستغفر منه .

قال : وقيل هو همه بسبب أمته وما اطلع عليه من أحوالها
بعده ، فيستغفر لهم .

وقيل : سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أمته وأمورهم
ومحاربة العدو ومداراته ، وتأليف المؤلفات ، ونحو ذلك فيشتغل
بذلك من عظيم مقامه فيراه ذنباً بالنسبة إلى عظيم منزلته وإن
كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال فهي

(١) أخرجه مسلم [٤٢/٢٧٠٢] .

(٢) أخرجه مسلم [٤٣/٢٧٠٣] .

نزول عن عالي درجته ورفيع مقامه من حضوره مع الله تعالى ومشاهدته ومراقبته وفراغه مما سواه فيستغفر لذلك .

وقيل : يحتمل أن هذا الغين هو السكينة التي تغشى قلبه لقوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ويكون استغفاره إظهارا للعبودية والافتقار وملازمة الخشوع وشكرا لما أولاه . وقد قال المحاشي : خوف الأنبياء والملائكة خوف إعظام وإن كانوا آمنين عذاب الله تعالى .

وقيل : يحتمل أن هذا الغين حال خشية وإعظام يغشى القلب ويكون استغفاره شكرا كما سبق ، وقيل : هو شيء يعترى القلوب الصافية مما تحدث به النفس فهوؤها .

قوله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنني أتوب في اليوم مائة مرة » هذا الأمر بالتوبة موافق لقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور : ٣١] وقوله تعالى : ﴿ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨] .

والتوبة أهم قواعد الإسلام وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة . قوله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من

مغربها تاب الله عليه » قال العلماء : هذا حد لقبول التوبة وقد جاء في الحديث الصحيح : « إن للتوبة باباً مفتوحاً فلا تزال مقبولة حتى يغلق فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق وامتنعت التوبة على من لم يكن تاب قبل ذلك » ^(١) وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُمَّةٍ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ . ومعنى تاب الله عليه : قبل توبته ورضي بها .

وللتوبة شرط آخر وهو أن يتوب قبل الغرغرة كما جاء في الحديث الصحيح وأما في حالة الغرغرة وهي حالة النزاع فلا تقبل توبته ولا غيرها ، ولا تنفذ وصيته ولا غيرها .

(١) روى الترمذى [٣٥٣٥] وابن ماجه [٤٠٧٠] عن صفوان ابن عسال رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من قبل مغرب الشمس باباً مفتوحاً عرضه سبعون سنة ، فلا يزال ذلك الباب مفتوحاً للتوبة ، حتى تطلع الشمس من نحوه فإذا طلعت من نحوه ، لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » . وحسنه الألبانى .

وقال الحافظ في الفتح : التوبة ترك الذنب على أحد الأوجه .
 وفي الشرع ترك الذنب لقبحه ، والندم على فعله ، والعزم على
 عدم العود ، ورد المظلمة إن كانت ، أو طلب البراءة من
 صاحبها وهي أبلغ ضروب الاعتذار ؛ لأن المعتذر إما أن يقول :
 لا أفعل ، فلا يقع الموقع عند من اعتذر له لقيام احتمال أنه فعل
 لا سيما إن ثبت ذلك عنده عنه ، أو يقول : فعلت لأجل كذا
 ويذكر شيئا يقيم عذره وهو فوق الأول ، أو يقول : فعلت
 ولكن أسأت وقد أفلعت وهذا أعلاه . انتهى من كلام الراغب .
 وقال : القرطبي في المفهم : اختلفت عبارات المشايخ فيها
 فقائل يقول إنها الندم ، وآخر يقول : إنها العزم على أن لا يعود ،
 وآخر يقول : الإقلاع عن الذنب ، ومنهم من يجمع بين الأمور
 الثلاثة وهو أكملها غير أنه مع ما فيه غير مانع ولا جامع .
 أما أولا : فلأنه قد يجمع الثلاثة ولا يكون تائبا شرعا إذ قد
 يفعل ذلك شحاً على ماله أو لئلا يُعَيَّرَهُ الناس به ولا تصح
 التوبة الشرعية إلا بالإخلاص ، ومن ترك الذنب لغير الله لا
 يكون تائبا اتفاقا .

وأما ثانيا : فلأنه يخرج منه من زنى مثلا ثم جُبَّ ذُكْرُهُ فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى ، وأما العزم على عدم العود فلا يتصور منه ، قال : وبهذا اغتر من قال : إن الندم يكفي في حد التوبة ، وليس كما قال ؛ لأنه لو ندم ولم يقلع وعزم على العود لم يكن تائبا اتفاقا ، قال : وقال بعض المحققين : هي اختيار ترك ذنب سبق حقيقة أو تقديرا لأجل الله قال : وهذا أَسَدُ العبارات وأجمعها لأن التائب لا يكون تاركا للذنب الذي فرغ لأنه غير متمكن من عينه لا تركا ولا فعلا ، وإنما هو متمكن من مثله حقيقة ، وكذا من لم يقع منه ذنب إنما يصح منه اتقاء ما يمكن أن يقع لا ترك مثل ما وقع فيكون متقيا لا تائبا ، قال : والباعث على هذا تنبيه إلهي لمن أراد سعادته لقبح الذنب وضرره ؛ لأنه سم مهلك يُفَوِّثُ على الإنسان سعادة الدنيا والآخرة ويحجبه عن معرفة الله تعالى في الدنيا ، وعن تقريره في الآخرة .

قال : ومن تفقد نفسه وجدها مشحونة بهذا السم فإذا وفق انبعث منه خوف هجوم الهلاك عليه ، فيبادر بطلب ما يدفع

به عن نفسه ضرر ذلك ، فحيثُذ ينبعث منه الندم على ما سبق
والعزم على ترك العود عليه . قال : ثم اعلم أن التوبة إما من
الكفر وإما من الذنب ، فتوبة الكافر : مقبولة قطعاً وتوبة
العاصي : مقبولة بالوعد الصادق ، ومعنى القبول : الخلاص
من ضرر الذنوب حتى يرجع كمن لم يعمل .

ثم توبة العاصي إما من حق الله وإما من حق غيره ، فحق
الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك على ما تقدم ، غير أن منه
ما لم يكتف الشرع فيه بالترك فقط بل أضاف إليه القضاء أو
الكفارة وحق غير الله يحتاج إلى إيصالها لمستحقها وإلا لم
يحصل الخلاص من ضرر ذلك الذنب ، لكن من لم يقدر
على الإيصال بعد بذله الوسع في ذلك فعفو الله مأمول فإنه
يضمن التبعات ويبدل السيئات حسنات . والله أعلم .

قلت : حكى غيره عن عبد الله بن المبارك في شروط التوبة
زيادة فقال : الندم والعزم على عدم العود ورؤ المظلمة وأداء ما
ضَيَّعَ من الفرائض ، وأن يعتمد إلى البدن الذي رُبَّاه بالسحت
فيذيه بالهم والحزن حتى ينشأ له لحم طيب ، وأن يذيق نفسه

ألم الطاعة كما أذاقها لذة المعصية . قلت : وبعض هذه الأشياء مكملات . وقد تمسك من فسر التوبة بالندم بما رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما من حديث ابن مسعود رفعه : « الندم توبة » ^(١) ولا حجة فيه لأن المعنى : الحظ عليه وأنه الركن الأعظم في التوبة ، لا أنه التوبة نفسها ، وما يؤيد اشتراط كونها لله تعالى وجود الندم على الفعل ولا يستلزم الإقلاع عن أصل تلك المعصية ، كمن قتل ولده ، مثلاً وندم لكونه ولده وكمين بذل مالا في معصية ثم ندم على نقص ذلك المال مما عنده . واحتج من شرط في صحة التوبة من حقوق العباد أن يزُدَّ تلك المظلمة بأن من غضب أمةً فزنى بها لا تصح توبته إلا يزُدَّها مالمالكها ، وأن من قتل نفساً عمداً لا تصح توبته إلا يتمكين نفسه من ولي الدم ليقص أو يعفو .

قلت : وهذا من جهة التوبة من الغضب ومن حق المقتول

(١) رواه أحمد في المسند [٣٧٦/١] وابن ماجه [٤٢٥٢] .
وصححه الألباني .

واضح ، ولكن يمكن أن تصح التوبة من العود إلى الزنا وإن استمرت الأُمَّة في يده ومن العود إلى القتل وإن لم يُمكن من نفسه . وزاد بعض من أدركناه في شروط التوبة أموراً أخرى: منها أن يفارق موضع المعصية ، وأن لا يصل في آخر عمره إلى الغرغرة ، وأن لا تطلع الشمس من مغربها ، وأن لا يعود إلى ذلك الذنب ، فإن عاد إليه بان أن توبته باطلة .

قلت : والأول مستحب ، والثاني والثالث داخِلان في حد التكليف ، والرابع الأخير عُزِيَ للقاضي أبي بكر الباقلاني . وَيُرَدُّ الحديث الآتي بعد عشرين باباً وقد أشرت إليه في « باب فضل الاستغفار » وقد قال الحلّمي في تفسير « التواب » في الأسماء الحسنی : أنه العائد على عبده بفضله رحمته ، كلما رجع لطاعته وندم على معصيته فلا يحبط عنه ما قدمه من خير ولا يحرمه ما وعد به الطائع من الإحسان .

وقال الخطابي : « التواب » الذي يعود إلى القبول كلما عاد العبد إلى الذنب وتاب .

وروي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِنْ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا - وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ فَاعْفِرْ لِي ، فَقَالَ رَبُّهُ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، عَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا - أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاعْفِرْهُ ، فَقَالَ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، عَفَرْتُ لِعَبْدِي . ثُمَّ مَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ : أَصَابَ ذَنْبًا ، قَالَ قَالَ : رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاعْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، عَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ^(١) .

قال الحافظ في الفتح : قال ابن بَطُّال : في هذا الحديث أن المَصِيرَ على المعصية في مشيئة الله تعالى ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له مُغَلَّبًا الحسنة التي جاء بها ، وهي اعتقاده أن له ربا خالقا يعذبه ويغفر له ، واستغفاره إياه على ذلك يدل عليه

(١) أخرجه البخارى [٧٠٦٨] ومسلم [٢٩/٢٧٥٨] .

قوله : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَرَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠]
ولا حسنة أعظم من التوحيد ، فإن قيل : إن استغفاره ربه توبة
منه ، قلنا : ليس الاستغفار أكثر من طلب المغفرة وقد يطلبها
المُصِيرُ والتائب ولا دليل في الحديث على أنه تائب مما سأل الغفران
عنه ؛ لأن حد التوبة الرجوع عن الذنب والعزم أن لا يعود إليه
والإقلاع عنه والاستغفار بمجرد لا يُفهم منه ذلك . انتهى .
وقال غيره شروط التوبة ثلاثة : الإقلاع ، والندم ، والعزم
على أن لا يعود . والتعبير بالرجوع عن الذنب لا يفيد معنى
الندم ، بل هو إلى معنى الإقلاع أقرب ، وقال بعضهم : يكفي
في التوبة تحقق الندم على وقوعه منه ؛ فإنه يستلزم الإقلاع عنه
والعزم على عدم العود فهما ناشئان عن الندم لا أصلا ، معه ،
ومن ثم جاء الحديث : « الندم توبة » .

وقال القرطبي في المفهم : يدل هذا الحديث على عظيم
فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه
وكرمه ، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارنا

للسان ليُنْخَلَّ به عقد الإصرار ، ويحصل معه الندم ، فهو ترجمة للتوبة ، ويشهد له حديث : « خياركم كل مفتن تواب » ^(١) ومعناه الذي يتكرر منه : الذنب والتوبة ، فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة ، لا من قال : أستغفر الله ، بلسانه وقلبه مُصِرٌّ على تلك المعصية ، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار . قلت : ويشهد له ما أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس مرفوعا : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » والراجح أن قوله « والمستغفر » إلى آخره موقوف وأوله عند ابن ماجه والطبراني من حديث ابن مسعود وسنده حسن ^(٢) وحديث « خياركم كل مفتن تواب » ذكره في مسند الفردوس عن علي .

قال القرطبي : وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملاسة الذنب نقض التوبة ، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه انضاف

(١) مسند الشهاب [١٢٧١] عن علي رضي الله تعالى عنه .

(٢) رواه ابن ماجه [٤٢٥٠] وحسنه الألباني .

إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله والاعتراف بأنه لا غافر للذنوب سواه .

قال النووي في الحديث : إن الذنوب ولو تكررت مائة مرة بل ألفا وأكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته ، أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته ، وقوله : « اعمل ما شئت » معناه : ما دمت تذنّب فتتوب غفرت لك .

وذكر في « كتاب الأذكار » عن الربيع بن خيثم أنه قال : لا تقل : أستغفر الله وأتوب إليه ، فيكون ذنبا وكذبا إن لم تفعل ، بل قل : اللهم اغفر لي وتب عليّ . قال النووي : هذا حسن وأما كراهية : أستغفر الله ، وتسميته كذبا فلا يوافق عليه ، لأن معنى أستغفر الله : أطلب مغفرته ، وليس هذا كذبا ، قال : ويكفي في ردّه حديث ابن مسعود بلفظ : « من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد قرأ من الزحف » ^(١) .

(١) رواه الترمذی [٣٥٧٧] وأبو داود [١٥١٧] عن بلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ عن أبيه عن جده وصححه الألباني ورواه الحاكم [٢/١٢٨/٢٥٥٠] عن ابن مسعود .

قلت : هذا في لفظ « أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم » ، وأما « أتوب إليه » فهو الذي عنى الربيع رحمه الله أنه كذب ، وهو كذلك إذا قاله ولم يفعل التوبة كما قال . وفي الاستدلال للزُّد عليه بحديث ابن مسعود نظر لجواز أن يكون المراد منه ما إذا قالها وفعل شروط التوبة ، ويحتمل أن يكون الربيع قصد مجموع اللفظين لا خصوص « أستغفر الله » فيصح كلامه كله والله أعلم .

ورأيت في الحلبيات للسبكي الكبير : الاستغفار طلب المغفرة إما باللسان أو بالقلب أو بهما ، فالأول : فيه نفع لأنه خير من السكوت ، ولأنه يعتاد قول الخير . والثاني : نافع جدا .

والثالث : أبلغ منهما لكنهما لا يحصان الذنب حتى توجد التوبة فإن العاصي المصر يطلب المغفرة ولا يستلزم ذلك وجود التوبة منه إلى أن قال : والذي ذكرته من أن معنى الاستغفار هو غير معنى التوبة هو بحسب وضع اللفظ لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظ « أستغفر الله » معناه : التوبة ، فمن كان ذلك معتقده فهو يريد التوبة لا محالة ، ثم قال : وذكر

بعض العلماء أن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى : ﴿ وَأَنۢ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ والمشهور أنه لا يشترط .
وقال النووي : اعلم أن كل من ارتكب معصية لزمه المبادرة إلى التوبة منها والتوبة من حقوق الله تعالى يُشترط فيها ثلاثة أشياء : أن يُقلع عن المعصية في الحال ، وأن يندم على فعلها ، وأن يعزم ألا يعود إليها .

والتوبة من حقوق الآدميين يُشترط فيها هذه الثلاثة ، ورابع : وهو رد الظلامة إلى صاحبها أو طلب عفو عنها والإبراء منها ، فيجب على المغتاب التوبة بهذه الأمور الأربعة ؛ لأن الغيبة حق آدمي ولا بدّ من استحلّاله من اغتابه ، وهل يكفيه أن يقول : قد اغتبتك فاجعلني في حلّ ، أم لا بُدّ أن يبيّن ما اغتابه به ؟ فيه وجهان لأصحاب الشافعي رحمهم الله : أحدهما : يُشترط بيّانه ، فإن أبرأه من غير بيانه لم يصحّ كما لو أبرأه عن مال مجهول . والثاني : لا يُشترط لأن هذا مما يُتسامح فيه فلا يُشترط علمه بخلاف المال . والأوّل أظهر لأن الإنسان قد يسمح بالعفو عن غيبة دون غيبة ، فإن كان صاحب الغيبة ميتاً

أو غائباً فقد تعذّر تحصيل البراءة منها ، لكن قال العلماء : ينبغي أن يُكثر الاستغفار له والدعاء ويُكثر من الحسنات .

واعلم أنه يُستحب لصاحب الغيبة أن يرثه منها ولا يجب عليه ذلك ؛ لأنه تبرّع وإسقاط حق ، فكان إلى خيرته ولكن يُستحب له استحباباً متأكداً الإبراء ليخلص أخاه المسلم من وبال هذه المعصية ويفوز هو بعظيم ثواب الله تعالى في العفو ومحبة الله سبحانه وتعالى ، قال الله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

وطريقه في تطيب نفسه بالعفو أن يذكر نفسه أن هذا الأمر قد وقع ولا سبيل إلى رفعه فلا ينبغي أن أفوت ثوابه وخلاص أخي المسلم وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] . وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] . والآيات بنحو ما ذكرنا كثيرة .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « .. اللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » (١) .

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٣٨/٢٦٩٩] عن أبي هريرة.

وقد قال الشافعي رحمه الله : من استرضي فلم يرض فهو
 شيطان . وقد أنشد المتقدمون في هذا المعنى :
 قيل لي قد أساء إليك فلانٌ ومُقام الفتى على الذلُّ عارٌ .
 قلتُ قد جاءنا وأخذتُ عُذراً ديةُ الذنبِ عندنا الاعتذارُ .
 فهذا الذي ذكرناه من الحث على الإبراء عن الغيبة هو
 الصواب . وأما ما جاء عن سعيد بن المسيب أنه قال : لا أُحلِّلُ
 من ظلمني ، وعن ابن سيرين : لم أُحرِّمها عليه فأحلَّلها له لأن
 الله تعالى حرَّم الغيبة عليه ، وما كنتُ لأحلِّل ما حرَّمه الله
 تعالى أبداً . فهو ضعيفٌ ، أو غلطٌ ، فإن المبريء لا يحلِّل
 محرماً وإنما يُسقط حقاً ثبت له ، وقد تظاهرت نصوصُ الكتاب
 والسنة على استحباب العفو وإسقاط الحقوق المختصة بالمسقط .
 أو يُحمل كلامُ ابن سيرين على أنني لا أبيع غيبتِي أبداً وهذا
 صحيح فإن الإنسان لو قال : أبحثُ عرضي لمن اغتابني لم
 يصرَّ مباحاً بل يحرم على كل أحد غيبتَه كما يحرم غيبة غيره .
 وأما الحديث : « أُنْعِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَنِّي ضَمُصِمٌ ؟ »

كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ إِنِّي تَصَدَّقْتُ بِعِزِّي عَلَى النَّاسِ ۝ (١)
 فمعناه : لا أَطْلُبُ مَظْلَمَتِي مِمَّنْ ظَلَمَنِي لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ،
 وَهَذَا يَنْفَعُ فِي إِسْقَاطِ مَظْلَمَةٍ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ الْإِبْرَاءِ .
 وَهَذَا الْكِتَابُ شَذَرَاتٌ مِنْ فَيْضِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى شَيْخِنَا
 الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ مَتَوَلَّى الشُّعْرَاوَى ، جَمَعَهَا مِنْ كُتُبِهِ وَتَسْجِيلَاتِهِ
 ثُمَّ شَرَحَهَا وَعَلَقْنَا عَلَيْهَا ، وَتَمَّ ضَبْطُ أَحَادِيثِهَا وَتَخْرِيجُهَا عَلَى
 مَصَادِرِهَا ، وَالْحُكْمُ عَلَيْهَا صَحَّةٌ وَضَعْفٌ مِنْ خِلَالِ كَلَامِ عُلَمَاءِ
 الْحَدِيثِ . وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَنْفَعَهَا قَارِئُهَا وَكَاتِبُهَا وَنَاشِرُهَا ، وَأَنْ
 يَجْزِيَ شَيْخِنَا الْجَلِيلَ عَمَّا قَدَّمَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ ،
 وَأَنْ يَجْعَلَ ثَوَابَ ذَلِكَ خَالِصاً لَهُ وَفِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِ يَوْمَ لَا
 يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِنَّهُ سَبْحَانَهُ وَلِي ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ . وَصَلَّى
 اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

عبد الله حجاج

ربيع الأول ١٤٢٢ هـ

يونيه ٢٠٠١ م

(١) رواه أبو داود [٤٨٨٦] عن قتادة رضي الله تعالى عنه و[٤٨٨٧]
 عن عبد الرحمن بن عجلان وقال الألباني : صحيح مقطوع .

التوبة ضرورة لحركة الحياة

شرع الله تعالى التوبة رحمة لحركة الحياة كلها ؛ لأنه إذا لم يكن هناك توبة لمرتكب المعصية أصبح كل من ارتكب ذنباً - ولو صغيراً مما يطلق عليه اللوم - مصيره إلى النار .

وإذا علم الإنسان أن مصيره النار مهما فعل ، فإنه يستشري في الذنب ، ويزداد في الإثم ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة . ولكن حين يعلم أى إنسان يخطئ أن الله تعالى ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها^(١) لا يزداد في إثمه ولا يتمادى في شروره .

إذن .. ففتح باب التوبة ليس رحمة للفرد فقط ، بل هو رحمة للمجتمع كله ؛ لأنها تجعل المجرم يكف عن إجرامه طمعاً فيما عند الله ، ورغبة في العفو .

(١) أخرجه مسلم [٣١/٢٧٥٩] عن أبى موسى رضى الله تعالى

والله سبحانه وتعالى هو : ﴿ التَّوْبُ ﴾ [البقرة : ٣٧] والثواب صيغة مبالغة فى قبول التوبة ، والمعنى : أنه يقبل التوبة من عباده ويعفو ، مهما تكرر الذنب ما دام العبد يرغب فى الرجوع إلى الله تعالى ^(١) .

(١) أخرج مسلم [٢٩/٢٧٥٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما يحكى عن ربه عز وجل قال : « أذنبَ عبدى ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب ! اغفر لى ذنبى . فقال : تبارك وتعالى عبدى أذنبَ ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب ! اغفر لى ذنبى . فقال تبارك وتعالى : عبدى أذنبَ ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب ! اغفر لى ذنبى . فقال تبارك وتعالى : أذنبَ عبدى ذنباً . فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . اعمل ما شئت فقد غفرت لك » . ووافقه البخارى [٧٥٠٧] .

قال الإمام النووى : « وهذه الأحاديث ظاهرة فى الدلالة فى أنه لو تكرر الذنب مائة مرة ، أو ألف مرة ، أو أكثر ، وتاب =

= في كل مرة ، قُبِلت توبته ، وسقطت ذنوبه ، ولو تاب عن
الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحت توبته .

مسلم بشرح النووي [٨٨/٩] .

قلت : ودليله في ذلك ما أخرجه مسلم [٤٦/٢٧٦٦] ،
والبخاري [٣٤٧٠] وابن ماجه [٢٦٢٢] عن أبي سعيد
الخدري رضي الله تعالى عنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا .
فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فذُلُّ على راهب . فأتاه فقال :
إنه قتل تسعة وتسعين نفسا ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا .
فقتله ، فأكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فذُلُّ ،
على رجل عالم . فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟
فقال : نعم . ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض
كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا
ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى إذا نصَّف
الطريق أتاه الموت . فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة
العذاب . فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مُقْبِلاً بقلبه إلى
الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط =



= فَأَتَاهُم مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمَ فَجَعَلَهُ بَيْنَهُمْ . فَقَالَ : قَيِّسُوا مَا
بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَدْنَى ، فَهُوَ لَهُ . فَقَاسُوهُ
فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ
الرَّحْمَةِ ه .

الله تعالى يفرح بتوبة عبده

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأنى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » (١) .

(١) أخرجه مسلم [٧/٢٧٤٧] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه .

وعنده [١/٢٦٧٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . ومن تقرب إلى شبراً تقربت =

وتخيل وأنت مسافر فى صحراء جرداء ، بعيدة تماماً عن أى عمران ، ثم جلست لتستريح ومعك الجمل الذى تسافر عليه وعليه الماء والطعام وكل ما تملك من وسائل الحياة ، ثم غفلت عن الجمل فانطلق شاردأ وسط الصحراء ، ولما تنبهت لم تجده ولم تعرف مكانه ، عند ذلك تيقنت أنك هالك لا محالة ، وفجأة وأنت فى هذه الحالة من الغم والكرب - خوفاً من المصير الذى ينتظرك - وجدت الجمل أمامك فكيف تكون فرحتك ؟ بلا شك تكون فرحة كبيرة جداً ؛ لأنك وجدت ما ينجيك من الهلاك ، فرحة هائلة عبر عنها الحديث الشريف ، حتى إن صاحب الراحلة أخطأ فى دعائه فقال : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك » وذلك من شدة فرحه .

○ ○ ○

= إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهول »

وقال شيخ الإسلام بن تيمية : وهذا الحديث متواتر عن النبى ﷺ رواه ابن مسعود ، والبراء بن عازب ، والنعمان بن بشير ، وأبو هريرة ، وأنس بن مالك رضى الله تعالى عنهم .

أنواع التوبة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : التوبة نوعان : واجبة ومستحبة :
فالواجبة : هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه
واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك في كتابه
وعلى السنة رسله .

والمستحبة : هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات .
فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ،
ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين . ومن لم يأت
بالأولى كان من الظالمين : إما الكافرين وإما الفاسقين .

والتوبة : رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه .
فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله ، وإلى فعل ما أمر به
وترك ما نهى عنه . وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما
ظن كثير من الجهال ، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد
من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات
المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها ، =



= فأكثر الخلق يتركون كثيرا مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع ، وإما مغضوبًا عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته .
التوبة لابن تيمية [ص : ١٣ ، ١٤] .

شروط التوبة

وشروط التوبة ثلاثة : الندم ، والإقلاع ، والاعتذار .
فحقيقة التوبة : هي الندم على ما سلف منه في الماضي ،
والإقلاع عنه في الحال ، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل .
والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة ، فإنه في
ذلك الوقت يندم ، ويقطع ، ويعزم .
فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها . وهذا الرجوع هو
حقيقة التوبة . ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .
فأما الندم : فإنه لا يتحقق التوبة إلا به ؛ إذ من لم يندم على
القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه ، وفي المسند
« الندم توبة » ^(١) .

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .
وأما الاعتذار : ففيه إشكال ، فإن من الناس من يقول : من
(١) رواه أحمد في المسند [٣٧٦/١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣] عن ابن
مسعود رضي الله تعالى عنه وقال الأرنؤوط : صحيح .

تمام التوبة ترك الاعتذار ؛ فإن الاعتذار مُحاجَّة عن الجناية ، وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف . وفي ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه في شيء :

وما قابلتُ عُثْبَكَ باعتذار ولكنِّي أقولُ كما تقولُ
وأطرقُ بابَ عَفْوِكَ بانكسار ويحكمُ بيننا الخلقُ الجميلُ
فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره وأزال عتبه عليه .

فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون في قلبه ولسانه : **اللَّهُمَّ لا براءة لى من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لى فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر ، اللَّهُمَّ لا عذر لى ، وإنما هو محض حَقك ، ومحض جُنائيتى ، فإن عفوت وإلا فالحق لك .** والذي ظهر لى من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحَقك ، ولا جهلاً به ، ولا إنكاراً لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك ، وإنما كان من

غلبة الهوى ، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعاً في مغفرتك واتكلاً على عفوك ، وحُشِنَ ظَنُّ بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعاً في سعة حلمك ورحمته ، وغرني بك الغرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، ومترك المرخى على ، وأعانتني جهلى ، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك ، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك ، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية . فهذا من تمام التوبة ، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق له .

وفى الحديث : « تملقوا لله » ^(١) ، وفى الصحيح : « لا أحد أحب إليه العذر من الله » وإن كان معنى ذلك الإعذار ؛ كما قال فى آخر الحديث : « من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ قَالَتْ قَيْنَتِ ذِكْرًا ۖ ﴾

(١) لم أجده فيما تحت أيدينا من مراجع .

(٢) أخرجه مسلم [١٧/١٤٩٩] عن سعد بن عبادة رضى الله عنه .

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿١﴾ [المرسلات] . فإنه من تمام عدله وإحسانه :
 أن أعذر إلى عباده ، وألا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال
 الإعذار وإقامة الحجة عليه ، فهو أيضًا يحب من عبده أن يعتذر
 إليه ، ويتنصل إليه من ذنبه ، وفي الحديث : « من اعتذر
 إلى الله قبل الله عذره »^(١) . فهذا هو الاعتذار المحمود النافع .
 أما الاعتذار بالقدر : فهو مخاصمة لله ، واحتجاج من العبد
 على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار ، وهذا فعل خصماء
 الله ، كما قال بعض شيوخهم في قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ
 حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ
 مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِئَةِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية ؟

قالوا : ما المراد بها ؟

قال : إقامة أعذار الخليقة .

(١) رواه أبو يعلى [٣٠٢/٧/٤٣٣٨] عن أنس بن مالك رضى
 الله تعالى عنه .

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه ، وإنما المراد بها : التزهيد في هذا الفاني الزاهب ، والترغيب في الباقي الدائم ، والإزراء بمن أثر هذا المزين واتبعه ، بمنزلة الصبي الذي يُزَيَّن له ما يلعب به فيهبش إليه ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل التزين ، فلم يقل : « زيننا للناس » والله تعالى يُضيف تزين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٣] ، وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَرْلَدِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ ﴾ . [الأنعام : ١٣٧] .

وفي الحديث : « بعثت هاديًا وداعيًا ، وليس إلى من الهداية شيء ، وبعث إبليس مغويًا ومزينًا ، وليس إليه من الضلالة شيء » ، ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . فإن إضافة التزين إليه قضاءً وقدراً ، وإلى الشيطان تسبباً ، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم

على ركونهم إلى ما زينه الشيطان لهم . فمن عقوبة السيئة :
السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة : الحسنة بعدها .

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر منافع للتوبة . وليس هو من
الاعتذار فى شيء ، وفى بعض الآثار : « إن العبد إذا أذنب ،
فقال : يا رب ، هذا قضاؤك ، وأنت قدرت على ، وأنت
حكمت على ، وأنت كتبت على . يقول الله عز وجل :
وأنت علمت ، وأنت كسبت ، وأنت أردت واجتهدت ، وأنا
أعاقبك عليه .

وإذا قال : يا رب ، أنا أخطأت ، وأنا اعتديت ، وأنا فعلت ،
يقول الله عز وجل : وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت ، وأنا
أغفر لك .

وإذا عمل حسنة ، فقال : يا رب أنا عملتها ، وأنا تصدقت ،
وأنا صليت ، وأنا أطعمت ، يقول الله عز وجل : وأنا أعتك .
وأنا وفقك .

وإذا قال : يا رب أنت أعنتنى ووفقتنى ، وأنت مننت على .



يقول الله تعالى : وأنت عملتها ، وأنت أردتها ، وأنت
كسبتها .

فلاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافي الاعتراف . فذلك منافٍ
للتوبة .

واعتذار يقرر الاعتراف ، فذلك من تمام التوبة .

مدارج السالكين [٢٠٥:٢٠٢/١] .

حقائق التوبة

قال صاحب المنازل : وحقائق التوبة ثلاثة أشياء :

تعظيم الجناية .

واتهام التوبة .

وطلب أعذار الخليفة .

يريد بالحقائق : ما يتحقق به الشيء ، وتبين به صحته

وثبوته ، كما قال النبي ﷺ لحارثة : « إن لكل حق حقيقة فما

حقيقة إيمانك ؟ »^(١) .

(١) روى ابن أبي شيبه في المصنف كتاب [٢٧] الإيمان والرؤيا ،

باب [٥] حديث رقم [٧٤] عن زبيد قال ، قال رسول الله ﷺ :

« كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال : أصبحت مؤمناً

حقاً ، قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ذلك ؟ قال :

أصبحت عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت ليلي

وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي قد أبرز

للحساب ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة ، =

.....

فأما تعظيم الجناية : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها .
وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها . فإن من استهان
بإضاعة فلس - مثلاً - لم يندم على إضاعته ، فإذا علم أنه
دينار اشتد ندمه وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء :
تعظيم الأمر ، وتعظيم الأمر ، والتصديق بالجزاء .
وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدى هذا
الحق على الوجه المطلوب منه ، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه ،
فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل
جهده في صحتها ، وأنها توبة عِلَّةٌ وهو لا يشعر بها ، كَتَوْبَةٍ
أرباب الحوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنزلهم

= وكأنني أسمع عواء أهل النار ، قال : فقال له : عبد نور الإيمان
في قلبه ، إن عرفت فالزم .

وانظره في ترجمة حارثة بن سراقة في أسد الغابة لابن
الأثير [٩٩٣/٦٥٠/١] ، والإصابة لابن حجر العسقلاني
[١٤٨٠/٥٩٧/١] .

بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال ، لا خوفاً من ذى الجلال ، أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد في تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعي المعصية في قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التي تقدر في كون التوبة خوفاً من الله ، وتعظيماً له ولحرماته ، وإجلالاً له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن البعد والطرده عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة ، فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

ومن اتهام التوبة أيضاً : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقعه ، فربما تنفس ، وربما هاج هائجه .

ومن اتهام التوبة : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطى منشوراً بالأمان ، فهذا من علامات التهمة . ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وألا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة . مدارج السالكين [٢٠٥/١ : ٢٠٦] .

علامات صحة التوبة

التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات :

منها : أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .
ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفه عين . فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، فهناك يزول الخوف .
ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوفاً . وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ، وهذا تأويل ابن عينة لقوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٠] . قال : تقطعها بالتوبة .
ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه ، وهذه حقيقة التوبة ؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه ، وخوفاً من

.....
سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة
وخوفًا ، تقطع فى الآخرة إذا حُقَّت الحقائق ، وعانين ثواب
المطيعين ، وعقاب العاصين ، فلا بد من تقطع القلب إما فى
الدنيا وإما فى الآخرة .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا كسرة خاصة تحصل
للقلب لا يشبهها شيء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل
بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد ، وإنما هى أمر وراء هذا
كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة ، قد أحاطت
به من جميع جهاته ، وألقته بين يدى ربه طريقًا ذليلاً خاشعًا .
كحال عبد جان أبى من سيده ، فأخذ فأحضر بين يديه ، ولم
يجد من ينجيه من سطوته ، ولم يجد منه بدءًا ، ولا عنه غناء ،
ولا منه مهرًا ، وعلم أن حياته وسعاده وفلاحه ونجاحه فى
رضاه عنه وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جنائياته ، هذا مع حبه
لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه ، وقوة
سيده ، وذله ، وعز سيده .

.....
فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها
للعبد ! وما أجدى عائدتها عليه ! وما أعظم جبره بها . وما
أقربه بها من سيده !

فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع
والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له .
فلله ما أحلى قوله في هذه الحال : « أسألك بعزك وذلي إلا
رحمتي ، أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك عنى وفقرى إليك ،
هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سوى كثير ،
وليس لى سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك .
أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهاال الخاضع الذليل .
وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبتة ،
ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلل لك قلبه » .

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره
فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك فى
قلبه فليتهم توبته ، وليرجع إلى تصحيحها .

فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة ، وما أسهلها باللسان والدعوى ! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأكثر الناس من المنتزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات : فى كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها ، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها ، فعندهم - من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم ، وصوله طاعتهم ، ومنتهم على الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعتهم ، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم ، وتوابع ذلك - ما هو أبغض إلى الله ، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك .

فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ؛ ليكسر بها نفسه ، ويعرفه قدره ، ويذله بها ، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه ، فهي رحمة فى حقه ، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه ، فهو رحمة فى حقهم ، وإلا فكلاهما على خطر . مدارج السالكين [٢٠٦/١ : ٢٠٨] .

جزاء المعرض عن التوبة

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَوِلُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة : ٧٤] إذن .. فجزاء من يعرض عن التوبة ويرفض أن يعترف بخطئته ، عذاب أليم ليس في الآخرة فقط ، ولكن في الدنيا والآخرة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ يتوهمه بعض الناس من ذوى العقول السقيمة بأن العذاب فى الدنيا فقط ؛ ولكن هناك أرض فى الدنيا وأرض فى الآخرة هى أرض الميعاد مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

إذن .. فكلمة الأرض تعطينا صورتين : صورة فى الدنيا وصورة الآخرة ، ولذلك فالعذاب فى الدنيا على هذه الأرض ، وفى الآخرة على أرض الحشر والحساب ، ثم النار موعدهم .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾
الولى : هو القريب منك الذى تفزع إليه عند الشدائد ،

ولا تفرع عند الشدائد إلا لمن تطمع أن ينصره ، أو لمن هو أقوى منك ، أما النصير : فهو من تطلب منه النصرة ، وقد يكون من البعيدين عنك ولا تربطك به ولاية .

إذن ، فلا الولي القريب منك ، ولا القريب الذي قد تفرع إليه لينصره يستطيع أن يفعل شيئاً ، وذلك لتعلم أنه لا نجاة من عذاب الله إلا بالإجابة إليه ، ولا ملجأ ولا منجاة منه إلا إليه سبحانه وتعالى ^(١) .



(١) أخرج البخاري [٦٣١١] ومسلم [٥٦/٢٧١٠] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : « اللهم أسلمت نفسي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنيك الذي أرسلت ، فإن مت ؛ مت على الفطرة ، فأجعلهن آخر ما تقول » .

الاستعانة بالصبر والصلاة

قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(١) . [البقرة : ١٥٣] .

(١) إن الله عز وجل يرشدنا لكيفية التعامل مع مشاكل الحياة
ونوائبها ، فيقول جل ثناؤه بخصوص التجهيز للحرب :
﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .
ويقول عز وجل لنبيه موسى عليه السلام فى مواجهة بعض
الأمر التى تحتاج إلى عون من الآخرين : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ
بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : ٣٥] . ويقول عز وجل للمسلمين قاطبة :
﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] . وهكذا فى أمور
كثيرة إلا أن القاعدة الأساسية لمواجهة كل هذه الأمور
وغيرها هى : « الاستعانة بالصبر والصلاة » ، التى يبنى عليها
بقية الأسباب ؛ التى نستمد منها توفيق الله لنا للسبب المؤدى
إلى جنته ، وتنزل السكينة علينا بإذن الله .. ولذلك كان
رسول الله ﷺ إذا واجهته مشكلة أو أهمه أمر قام فصلّى
مستعيناً بها ، وبالصبر كما أمر الله عز وجل وأرشد .
وفى الحديث عن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال : =

= « كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى » (١) .

وعن صهيب الرومي رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ :

« .. كانوا - يعنى الأنبياء - يفرعون إذا فرغوا إلى الصلاة .. » (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه : نعى إليه أخوه قثم وهو فى

مسير ، فاسترجع ثم تحنى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما

الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول : ﴿ وَاسْتَعِينُوا

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥] .

وروى الطبرى بسنده عن أبى العالية فى قوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ يقول : استعينوا بالصبر والصلاة على

مرضاة الله ، واعلموا أنهما من طاعة الله .

وعن الربيع قوله : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

وَالصَّلَاةِ ﴾ ، اعلموا أنهما عونٌ على طاعة الله . =

(١) رواه أبو داود [١٣١٩] ، وأحمد فى المسند [٣٨٨ / ٥] ،

وَحُسْنُهُ الْأَبَانِي فى صحيح أبى داود [١١٧١] .

(٢) رواه أحمد فى المسند [٣٣٣ / ٤] بسند صحيح .

(٣) رواه سعيد بن منصور فى مسنده [٦٣٢ / ٢] بسند صحيح ،

وابن جرير الطبرى فى تفسيره [١٤ / ٢ رقم ٨٥٢] .

= وأما قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، فإن تأويله : فإن الله ناصره وظهيره وراضٍ بفعله ، كقول القائل : « افعِلْ يَا فلان كذا وأنا معك » ، يعنى : إني ناصرُك على فعلك ذلك ومُعِينك عليه .

وقال الطبرى : وهذه الآية حضٌّ من الله تعالى ذكره على طاعته ، واحتمال مكروهاها على الأبدان والأموال ، فقال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ على القيام بطاعتي ، وأداء فرائضي في ناسخ أحكامي ، والانصراف عما أنسخه منها إلى الذي أحديثه لكم من فرائضي ، وأنقلكم إليه من أحكامي ، والتسليم لأمرى فيما أمركم به في حين إلزامكم حكمه ، والتحول عنه بعد تحويلي إياكم عنه - وإن لحقكم في ذلك مكروهٌ من مقالة أعدائكم من الكفار بقذفهم لكم الباطل ، أو مشقةٌ من مقالة أعدائكم من الكفار بقذفهم لكم الباطل ، أو مشقةٌ على أبدانكم في قيامكم به ، أو نقصٌ في أموالكم - وعلى جهاد أعدائكم وحرهم في سبيلي ، بالصبر منكم لى على مكروه ذلك ومشقته عليكم ، واحتمال غناؤه وثقله ، ثم بالفزع منكم فيما يتوبكم من مفضعات الأمور إلى الصلاة لى . فإنكم بالصبر على المكاره تُدركون مرضاتي ، =

= وبالصلاة لى تستنجحون طلباتكم قبلى ، وتدركون حاجاتكم عندى ، فإنى مع الصابرين على القيام بأداء فرائضى وترك معاصى ، أنصرهم وأرعاهم وأكلؤهم ؛ حتى يظفروا بما طلبوا وأملوا قبلى .
 تفسير الطبرى [٢١٣/٣ ، ٢١٤] .

وقال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ : أرشد تعالى المؤمنين ، إثر الأمر بالشكر فى الآية قبل ، بالاستعانة بالصبر والصلاة ؛ لأن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها ، أو فى نقمة فيصبر عليها . كما جاء فى الحديث^(١) : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى له قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وإن =

(١) أخرجه مسلم [٦٤/٢٩٩٩] عن صهيب رضى الله تعالى عنه بلفظ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له . »
 وروى أحمد فى المسند [٢٤/٥] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئاً إلا كان خيراً له . »

= أصابته ضراء فصبر كان خيراً له . وبن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب في سبيل الله ، الصبر والصلاة كما تقدم في قوله : ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ .

وفى الحديث^(١) : أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى . ثم إن الصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمأثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثاني أكثر ثواباً ، لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضاً واجب . كالاستغفار من المعائب .

وقال الإمام ابن تيمية في كتابه « السياسة الشرعية » : وأعظم عون لولئ الأمر خاصة ، ولغيره عامة ثلاثة أمور : أحدها : الإخلاص لله ، والتوكل عليه بالدعاء وغيره . وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن . =

(١) تقدم ، رواه أحمد في المسند [٣٣٨/٥] ، وأبو داود [١٣١٩] ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [٧١٧١] عن حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه .

= والثاني : الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة .

والثالث : الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب .

ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله

تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَلِكَ الَّذِي ذُكِّرْتُمُ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [مريم] .

فإنَّ الله لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [مرد] .

وقوله : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ

لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه : ١٣٠] .

وأما قرأته بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جداً .

فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا

عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة . يدخل في

الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص

الدين له والتوكل عليه ، وفي الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال

والنفع : من نصر المظلوم وإعانة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج .

وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن =

= الناس ومخالفة الهوى وترك الشر والبطر .

ما قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ قال الإمام ابن تيمية في « شرح حديث النزول » : لفظ المعية في كتاب الله جاء عاماً كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] .

وفى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] ، إلى قوله : ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ .

وجاء خاصاً كما في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وقوله : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] .

وقوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . فلو كان المراد بذاته مع كل شيء ، لكان التعميم يناقض التخصيص . فإنه قد علم أن قوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، فلفظ المعية ليست في لغة العرب =

= ولا فى شىء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى . كما فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤٦] وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٥] . ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق . وقد بسط الكلام عليه فى موضع آخر ويتبين أن لفظ المعية فى اللغة ، وإن اقتضى الجماعة والمصاحبة والمقارنة ، فهو إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوه على عرشه ، ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد .

محاسن التأويل [٣١٦/٢ - ٣١٩] .

وقال العلامة السعدى رحمه الله تعالى عليه : أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية ﴿ يَا صَبْرُ وَالصَّلَاةُ ﴾ . فالصبر هو حبس النفس وكفها عما تكره ، فهو ثلاثة أقسام :

= الأول : صبرها على طاعة الله ، حتى تؤديها .

الثاني : وعن معصية الله حتى تتركها .

الثالث : وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها .

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر ، فلا سبيل لغير الصابر ، أن يدرك مطلوبه وخصوصًا الطاعات الشاقة المستمرة ، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر ، وتجزع المرارة الشاقة فإذا لازم صاحبها الصبر ، فاز بالنجاح ، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها ، لم يدرك شيئاً ، وحصل على الحرمان ، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد ، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم ، وكف لدواعي قلبه ونوازعها ، لله تعالى ، واستعانة بالله على العصمة منها ، فإنها من الفتن الكبار .

وكذلك البلاء الشاق ، خصوصاً إن استمر ، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ، ويوجد مقتضاها ، وهو التسخط ، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله ، والتوكل عليه ، واللجأ إليه ، والافتقار على الدوام .

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد ، بل مضطر إليه في كل =

= حالة من أحواله ، فلهذا أمر الله تعالى به ، وأخير أنه : ﴿ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى : مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة ، وملكة - بمعونته وتوفيقه وتسديده - فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره ، وسهل عليهم كل عظيم ، وزالت عنهم كل صعوبة ، وهذه معية خاصة تقتضى محبته ومعونته ، ونصره وقربه ، وهذا منقبة عظيمة للصابرين . فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله ، لكفى بها فضلاً وشرفاً ، وأما المعية العامة فهى معية العلم والقدرة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ وهذه عامة للخلق .

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة ؛ لأن الصلاة هى عماد الدين ، ونور المؤمنين ، وهى الصلة بين العبد وربّه ، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة ، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها ، وما يسن ، وحصل فيها حضور القلب الذى هو لبها ، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربّه ، ووقوفه بين يديه ، موقف العبد الخادم المتأدّب ، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله ، مستغرقاً بمناجاة ربّه ودعائه ، لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ ولأن هذا =

اللَّهُ تبارك وتعالى يخاطب من آمن به ليتلقى عنه التكليف ،
فالتكليف إنما يأتي بعد الإيمان ، إن الله يكلف فقط من آمن به ،
لذلك فالحق لا يقول : يا أيها الناس افعلوا كذا . إن الحق
يدعو الناس إلى الإيمان به أولاً ، ثم يخاطب المؤمنين بأن
يطلب منهم أن يعملوا على مقتضى الإيمان ، وعندما يأمر الحق
جل وعلا بالاستعانة بالصلاة بجانب الصبر ، فإننا نعلم أن
الصلاة هي الركن الإسلامى الذى يعلن به المسلم الولاء الدائم
لخالقه عز وجل .

وقلنا : إن الإنسان المخلوق لله عندما يقف كل يوم خمس مرات
بين يدي الله ، فإنما يصلح من ذاته ويتطهر من ذنوبه (١) .

= الحضور الذى يكون فى الصلاة ، يوجب للعبد فى قلبه وصفا
وداعياً يدعو به إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه ، هذه هي
الصلاة التى أمر الله أن يستعين بها على كل شيء .

تيسير الكريم الرحمن (١٠٩/١ - ١١١) .

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أرأيتم لو أن نهراً بآب أحدكم
يفتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء ؟ » قالوا : لا
يبقى من درنه شيء . قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بهن
الخطايا » . أخرجه البخارى [٥٢٨] ، ومسلم [٢٣٨/٦٦٧] واللفظ له .

إن الإنسان صنعة الله ، وعندما يذهب الإنسان إلى لقاء خالقه جل وعلا ؛ فإنه يصلح ما يصيبه من عطب ؛ وقد لا يدري الإنسان هذا اللون من العطب . وهكذا يُعد الخالق سبحانه خَلَقَهُ لمواجهة كل ألوان المتاعب في الحياة بقوله سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ ؛ إن الحق يدعو المؤمنين إلى الحضور الدائم في معيته ، معية النصر والتأييد والمدد . إن أحداث الحياة والمصائب فيها لا يمكن أن تتسلط على النفس إلا إذا انزلت النفس عن مصدر قوتها ، وفي هذا الموضع يأتي أمر الحق بالتكليف الواضح ؛ بالصبر على إيذاء اليهود وأهل الكتاب والمشركين لمشاعر المسلمين ، قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

(١) قال الإمام ابن القيم : قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان . فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر . وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً : =

= الأول : الأمر به . نحو قوله تعالى : ﴿ يَكَايْهُمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (البقرة : ٤٥) . وقوله : ﴿ أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] . وقوله : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

الثاني : النهى عن ضده كقوله : ﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقوله : ﴿ فَلَا تَوَلَّوْهُمْ أَلَا تَذَكَّرَ ﴾ [الأنفال : ١٥] . فإن تولية الأذبار : ترك للصبر والمصابرة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٣) . فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها . وقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران : ٣٣] فإن الوهن من عدم الصبر .

الثالث : الثناء على أهله كقوله تعالى : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧] . وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٧) وهو كثير في القرآن .

الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٦] .

= الخامس : إيجاب معيته لهم ، وهى معية خاصة ، تتضمن حفظهم

ونصرهم وتأبيدهم ، ليست معية عامة ، وهى معية العلم والإحاطة

كقوله : ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦]

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه ، كقوله : ﴿ وَلَئِنْ

صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] . وقوله : ﴿ وَأَنْ

تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] .

السابع : إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم . كقوله تعالى :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦] .

الثامن : إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب . كقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

التاسع : إطلاق البشرى لأهل الصبر . كقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ

وَالْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْمَرْثِ وَبَشِيرٍ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

العاشر : ضمان النصر والممدد لهم . كقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ

إِنْ نَصَبُوا وَتَنَقَّوْا وَيَأْتُواكُمْ مِنْ قَوَرِهِمْ هَذَا يُمْسِكُكُمْ رَبُّكُمْ بِخِصَّةٍ أَلْفٍ مِنَ أَلْفَتِكُمْ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، ومنه قول النبي ﷺ : « واعلم أن النصر مع الصبر » (١) .

الحادى عشر : الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم . كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

الثانى عشر : الإخبار أنه ما يُلقَى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر كقوله تعالى : ﴿ ... وَتِلْكَ أُمُورُ النَّبَاتِ الَّتِي لَا تَمُوتُ أَسْفَلَ مِنْهَا خَشَائِرُ النَّاسِ وَفَوقَهَا صِلَابٌ وَقَعْتَ عَلَيْهِ أَعْيُنٌ عَابِدُونَ أَعْيُنُ النَّاسِ وَمَا يُلْقَى فِيهَا مِنَ الْقَلَبَاتِ بَوَاقٍ ﴾ [التين : ١٠] . وقوله : ﴿ وَمَا يُلْقَى فِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَى فِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [نعل : ٣٥] .

الثالث عشر : الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر . كقوله تعالى لموسى : ﴿ ... أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ مَدْيَنَ وَاصْطَبِرْ ﴾ [طه : ٢٤] .

(١) جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [٣٠٧/١] ، والحاكم فى المستدرک [٥٤١/٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بلفظ : « واعلم أن مع الصبر النصر » . وصححه الشيخ شاکر برقم [٢٨٠٤] .

مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْتَهُمْ بِأَنَّهُمُ اللَّهُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيِنٌ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ [إبراهيم : ٥] وقوله في أهل سبا : ﴿... فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيِنٌ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ [سبا : ١٩] . وقوله في سورة الشورى : ﴿وَمِن مَّابْنِي الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَافِ إِنَّ بِنَاءَ بُسْطَيْنِ الرِّيحِ فَيُظِلِّلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيِنٌ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣، ٣٤﴾ [الشورى : ٣٣، ٣٤] .

الرابع عشر : الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب ، والنجاة من المكروب المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر كقوله تعالى : ﴿.. وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ الْذَّارِ ﴿٢٣، ٢٤﴾ [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] .

الخامس عشر : أنه يورث صاحبه درجة الإمامة . سمعت شيخ الإسلام بن تيمية - قدس الله روحه - يقول : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِبَيْنِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ [السجدة : ٢٤] .

السادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان ، كما =

= قرنه الله سبحانه باليقين والإيمان وبالتقوى والتوكل ، والشكر والعمل الصالح والرحمة ؛ ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له . كما أنه لا جسد لمن لا رأس له .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : « خير عيش أدركناه بالصبر » ^(١) .

وأخبر النبي ﷺ فى الحديث الصحيح : « أنه ضياء » ^(٢) .
وقال : « من يتصبر يصبره الله » ^(٣) . =

(١) أخرجه البخارى مُعَلَّقًا بصيغة الجزم . وقال الحافظ فى الفتح :

قد وصله أحمد فى كتاب الزهد بسند صحيح عن مجاهد قال : قال عمر : « وجدنا خير عيشنا الصبر » . ورواه أبو نعيم فى الحلية من طريق أحمد كذلك . ورواه عبد الله بن المبارك فى

كتاب الزهد من وجه آخر عن مجاهد به . فتح البارى [٣٠٩/١١] .

(٢) أخرجه مسلم [١١/٢٢٣] ، عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم [١٢٤/١٠٥٣] ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

= وفى الحديث الصحيح : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١) .

وقال للمرأة السوداء التى كانت تصرع فسأته : أن يدعو لها : « إن شئت صبرت ، ولك الجنة وإن شئت دعوت الله - . بيت » فقالت إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف . فدعا لها (٢) .

وأمر الأنصار رضى الله تعالى عنهم بأن يصبروا على الأثرة التى يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض (٣) .

وأمر عند ملاقات العدو بالصبر ، وأمر بالصبر عند المعركة . وأخبر : « أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى » (٤) . =

(١) أخرجه مسلم [٦٤/٢٩٩٩] ، عن صهيب الرومى رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى [٥٦٥٢] ، ومسلم [٥٤/٢٥٧٦] ، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

(٣) أخرجه البخارى [٤٣٣٠] ، ومسلم [١٣٩/١٠٦١] ، عن عبد الله بن زيد رضى الله تعالى عنه .

(٤) أخرجه البخارى [١٢٨٣] ، ومسلم [١٤/٩٢٦] ، عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه .

اللَّهُ تبارك وتعالى يطلب من المؤمنين أن يستعينوا بالصبر والصلاة في أى أمر فى حركة الحياة يفوق طاقة المؤمن وقدرته ؛ لأن أى أمر لو كان فى مقدور الإنسان لما طلب المعونة ، ولنا أن نسأل : متى يطلب الإنسان المعونة ؟

الإنسان يطلب المعونة عند عدم القدرة . إذن .. لا بد أن تستوعب قدرة الإنسان الفعل فيستطيع إنجازها ، ولكن ماذا يفعل الإنسان حين يحىء فعل يفوق قدرته ؟ ساعتها يجب عليه أن يستعين بالقادر الذى لا تنفد قدرته أبداً .

= وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له ، وهو الصبر والاحتساب ؛ فإن ذلك يخفف مصيبته ويوقر أجره . والجزع والتسخط والتشكى يزيد فى المصيبة ، ويذهب الأجر . وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله : فقال : « ما أعطى أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر »^(١) . مدارج السالكين [٢ / ١٧٤ : ١٧٨] .

(١) أخرجه البخارى [١٤٦٩] ، ومسلم [١٠٥٣ / ١٢٤] ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه .

إن هذه الآية يستطيع المؤمن أن يسير على هُداها في كل حركة في الحياة ، فيقبل على الأشياء مستعيناً بمن خلق الأشياء سبحانه ، ولا يستعين الإنسان بالخالق جل وعلا إلا إذا كان مؤمناً به .

وقول الله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ ﴾ معنى ذلك : أن الحق ينبهنا إلى أن هناك أحداثاً ستأتى تستنفد الطاقة البشرية وتعلو عليها وتخطاها ، والصبر هنا يدل على أن هذه الأحداث فيها إيلام وفيها مشقة ، وكأن الحق يعد النفس المؤمنة لعملية جهادية كبيرة قد تستنفد طاقة الإنسان العادى ، لكن المؤمن يستطيع أن يتحمل مشقة الأحداث بالصبر على ما يلاقه . إن الحق لا يُمنِّى المؤمنين الذين اختاروا السير على الصراط المستقيم فى الحياة ، بأن طريق الإيمان طريق سهل خالٍ من المشاق . إن مهمة أهل الطريق المستقيم فى الحياة أنهم أصحاب حق ، وأصحاب الحق لا تستنفر هممهم إلا حين يستشرى الباطل ، والباطل حين يرى دنياه تنزلزل من تحت أقدامه فهو يحاول جاهداً أن يصدَّ جنود الحق .

إن الله يَعدُّ المؤمنين بأنهم سيواجهون عنفاً ويواجهون شراسة ويواجهون مكرًا ويواجهون كيداً ، فإياكم أيها المؤمنون أن تخور منكم القوة وأنتم تؤدّون المهمة ، هذه المهمة هي : إعلاء كلمة الله في الأرض ؛ وإخراج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله الواحد القهار ، وهذا الأمر لن يتم يسر وسهولة ، فلا بد من المشقة وتحمل تبعات ذلك .

إن أعداء الإسلام سيتكالبون عليكم ، فكونوا أتم أشد منهم قوة واستعينوا بالصبر . والصبر هو أن يتحمل الإنسان لوتين من المشقة .

اللون الأول من المشقة هو : أن الطاعة قد تكون صعبة على النفس ، فعلى المؤمن أن يصبر عليها .
واللون الثاني من المشقة هو : أن الطاعة تتطلب أيضاً أن يكف الإنسان عن شهوة تلح النفس عليها^(١) ، وهذا أيضاً يتطلب صبراً .

(١) ولذلك فقد قَسَم العلماء « الصبر » إلى أنواع ، وذلك بالنسبة لما يستقبله العبد من أمور في حياته ، وإلى أنواع أخرى بالنسبة لعلاقة المسلم بربه ، وعرفوا الصبر لغة وشرعاً ، وها نحن =

= نذكر كلامهم على وجه من الاختصار غير المخل ، فأنواع

الصبر لما يستقبله العبد من أمور في حياته هي :

١ - الصبر في اللغة : الحبس والكف ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَصْبِرْ
نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهًا ﴾ [الكهف : ٢٨] أى : احبس نفسك معهم ، كما قال
الإمام ابن القيم . مدارج السالكين [١٧٨ / ٢] .

٢ - الصبر شرعاً : حبس النفس على ما يقتضيه الشرع ،
فهو حبس النفس عن الجزع والنسخط ، وحبس اللسان عن
الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعاصي والبعد عن الله نتيجة
ظروف الحياة .

وقد قال الراغب : فالصبر لفظ عام ، وربما خولف بين أسمائه
بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمي
صبراً لا غير ، وبضاده الجزع .

وإن كان في محاربة سُوءٍ شجاعة وبضاده الجبن .

وإن كان في نائبة مضجرة سُمي رحب الصدر ، وبضاده الضجر .

وإن كان في إمساك الكلام سُمي كتماناً وبضاده المذل ، وقد سمي

الله تعالى كل ذلك صبراً . مفردات ألفاظ القرآن [ص ٤٧٤] . =

إذن .. فالطاعة تتطلب صبراً فى حالة تنفيذ مطلوبها ،
وتتطلب صبراً آخر فى حالة الابتعاد عن المشقة ، إن الطاعة
تتطلب الصبر على القيام بعمل قد يرى الإنسان أنه شاق ،
وتنتهى عن عمل قد يرى الإنسان أنه سهل وفيه لذة ، لذلك
نجد الرسول ﷺ يقول فى الحديث : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ ،
وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » (١) .

= وللصبر أنواع أخرى منها :

١ - الصبر لله « فلا يرأى فيه » لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا
أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

٢ - الصبر بالله : قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا
بِاللَّهِ ﴾ [الحل : ١٢٧] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا
مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

٣ - الصبر عن الله : وهو حرام ، وذلك لمن ذاق حلاوة القرب
من الله عز وجل ثم صبر على البعد عنه بعد ذلك .

مدارج السالكين [٢ / ١٧٨] وما بعدها .

(١) أخرجه البخارى [٦٤٨٧] عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ومسلم
[٢٨٢٢] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه واللفظ له .

الطاعة إذن تتطلب لونين من الصبر ، الصبر على مشقة الطاعة لتفعلها ، والصبر على ترك المعصية لتجنبها ، لكن إذا ما ظلت النفس مع الله تعالى باتباع أمره واجتناب نهيه فلن تقدر أحداث الحياة أن تتسلط بالهموم على النفس الإنسانية . إن الإنسان المؤمن ما دام في حصانة دينه فلا يقوى عليه حدث أبداً ، أما الإنسان المنعزل عن منهج الله فهو الذى تقوى عليه أحداث الحياة ؛ لأنه يواجهها بقدرته المحدودة ، وأما الإنسان المؤمن بمنهج الله فهو يعيش فى معية ربه القادر القدير ، فلا يتغلب عليه أحد أبداً إلا إذا انعزل عن معية ربه أو خالف فى شيء من منهجه ، فإن أراد المؤمن أن يستديم نصر الله ، فليظل دائماً فى معية الله ، والحق يكون مع الصابرين ؛ حتى يعلموا أن الله تعالى يفرج عنهم .

إن أمر الحق للمسلمين بالصبر والصلاة ، هو تجديد استدامة الولاء له سبحانه عندما هاجروا من مكة إلى المدينة ، وكان اليهود فيها أصحاب شيء من العلم ؛ ولهم جزء من السيطرة على الاقتصاد ، لذلك جاء أمر الله بالاستعانة بالصلاة لتستمر

القيم التي هجرها اليهود ، وأمرهم الحق بالزكاة ؛ لأن الزكاة
في جوهرها إيجاد حركة من الإنسان ؛ لتسع حاجته
وحاجة من يعول وتزيد ، وبذلك يستغنى المسلمون عن
اليهود فلا يحتاجون إلى اقتصاد يسيطر عليه هؤلاء الذين
لعنهم الله .

إن الأمر بالزكاة كان في جوهره أمراً بزيادة الحركة في الحياة ؛
ليواجه المسلمون أمور حياتهم بحزم ، ويصلحوا من هذه
الأمر بمنهج الله .

إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تبعات الإيمان ، ومواجهة
المؤمنين لخصوم الإيمان ستطلب من المسلمين مشقة عنيفة ،
فهي تهددهم في ذواتهم وفي أهلهم وفي أموالهم ؛ لذلك أراد
الحق سبحانه وتعالى أن يعطي المؤمنين في هذه البيئة مناعة ضد
كل هذه الأشياء ، فأمرهم بالاستعانة بالصبر والصلاة ، فقال
تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .



الصلاة .. وتكفير الذنوب

بعد أن قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ ﴾ [هود : ١١٤]
وهكذا كشف الله تعالى وجهها من حكمته سبحانه فى القيام
بالصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل وهى أن الصلاة إلى الصلاة
كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر^(١) ، ولكن ما هى الحسنة وما
هى السيئة ؟ الحسنة هى ما رتب الله تعالى على عملها ثوابا ،
والسيئة هى ما جعل الله سبحانه على عملها عقابا .
وأولى حسنات الإيمان أن نشهد أن لا إله إلا الله فتذهب
حسنة الإيمان سيئة الكفر .

وقال بعض العلماء : إذا كان الإيمان حسنة أذهبت سيئة
الكفر ؛ فيا من تقول : إن المؤمن الذى عمل الذنوب الكبائر
سيخلد فى النار ، ما الفرق بين إنسان عصى وهو مؤمن
(١) أخرج مسلم [١٤/٢٣٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى
عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة
إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهما إذا
اجتنبت الكبائر » .

وانسانٍ عصى وهو كافر ؟ وإذا كان الإيمان حسنة أذهب الله تعالى بها الكفر ، ألا يذهب بها سبحانه ما هو دون الكفر ؟ نقول : بلى ؛ إن الإيمان حسنة أذهب الله تعالى بها سيئة الكفر ، فالمؤمن العاصى مهما كانت معصيته لا يخلد فى النار ؛ لأنه ليس من العدل المساواة بين من آمن بالله تعالى ولكنه حدث عنده بعض التقصير فى أمور ، وبين من لم يؤمن بالله أصلاً . إذن .. كلمة الإيمان قد صنعت حسنة كبيرة ، بأن أذهبت الكفر أولاً فمُنعت خلود المؤمن فى النار ثانياً ، ولذلك من عقيدة الفرقة الناجية التى جاءت فى أحاديث رسول الله ﷺ أن المؤمن العاصى لا يخلد فى النار ، وإن كان يدخلها بقدر ما ارتكب من المعاصى ، إذا لم تتداركه رحمة الله تعالى بأن تكون حسناته أكثر فى ميزانه من سيئاته ، أو يشفع الله تعالى فيها ، أو تناله شفاعة النبی ﷺ ، أو يشفع فيه أحد من المأذون لهم فى الشفاعة .

والحسنات هى الفرائض التى فرضها الله تعالى على عباده ، إذن .. فالحسنات التى هى الفرائض تذهب بالسيئات التى هى المعاصى ، وما يوجب عذاب الله . ولكن هناك أحاديث

وردت في غير الفرائض ، منها مثلاً : صوم يوم عرفة يكفر السنة الماضية والباقية ^(١) ورسول الله ﷺ قال : إن الإنسان الذي يستقبل نعمة الله بقوله : الحمد لله الذي رزقني بغير حول مني ولا قوة ، والحمد لله الذي كسانى من غير حول مني ولا قوة ، هذا الحمد يكفر الذنوب ، وإذا قلت : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله تكفر الذنوب .

إذن .. فالحسنات تكون فرضاً وتكون غير فرض ، وكلها تحسب حسنات ؛ والسيئات هي عمل توعد الله من يعمله بالعقوبة ، فكيف تذهب الحسنات السيئات ما دامت السيئات عملاً ؟ وهل العمل إذا وقع يرفع ؟ كيف تذهب الحسنة السيئة ؟ نقول : إن السيئة إذا وقعت لا ترفع ؛ لأن الذهاب إما أن يكون ذهاب فعل ، وهذا ليس متأتياً ، وإما أن يكون ذهاب أثر

(١) جزء من حديث رواه مسلم [١١٦٢/١٩٧] عن أبي قتادة الأنصاري رضى الله تعالى عنه .

ذلك الفعل ، وهذا هو الذى يحدث ، فالله سبحانه وتعالى
يمحوه من كتاب سيئاتك .

إذن .. فإذا هاب الفعل فى ذاته لا يحدث ؛ لأن الواقع لا
يرفع وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
الْأَسَئَاتِ ﴾ [مود : ١١٤] ليس معناه أنها تمنعها ؛ لأن السيئة
وقعت فعلاً ، ولكن السيئة إذا وقعت فإن الذى يترتب عليها
من عقاب هو الذى يرفع بموجب فعل الحسنات .



الصلاة تفرّج الهموم

يروى أن رجلاً كان يسير في الليل ، فرأى الجنود الذين يراقبون الطرقات ، فقال الرجل في نفسه : قد يظلمنى الجند بسؤالى أين كنت ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ لذلك سأجرى منهم وأختفى فى أى مكان ، وجرى الرجل واختبأ فى مكان خرب ، وداهم الجند ذلك المكان ووجدوا فيه قتيلاً ، وكانت كل الملابس تشير إلى أن الرجل هو القاتل ، واقتاد الجند الرجل إلى الحاكم . فماذا كان من الرجل ؟ لقد طلب الرجل أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين لله ، وأمهله الحاكم ، فصلى الرجل ودعا الله قائلاً : « اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد لى على براءتى إلا أنت ، وأنت أمرتنا ألا نكثم الشهادة فأسألك ذلك فى نفسك » .

لقد كان الرجل يؤمن يقيناً بأن الله قد أمر المؤمنين ألا يكتموا الشهادة ؛ لذلك سأل الرجل ربه الحق أن يظهر براءته ، وعلى الفور دخل على الحاكم فجأة رجل وقال : أنا القاتل ،

فتعجب الحاكم ، وسأل الرجل الذى جاء ليقر أنه قاتل : لماذا
تعترف على نفسك ولم يرك أحد ؟
قال القاتل : والله ما قررت ، إنما جاء هائف فأجرى لسانى
بما قلت .

القاتل يعترف أن هائفاً قد جاء إليه فحرك خواطره فصار إلى
الحاكم ليعترف أنه القاتل ، وهنا قام ولئى المقتول وصاحب
الحق فى الدية ، وكان هو ابن القاتل ليقول : « اللَّهُمَّ إِنِّى
أُشْهِدُكَ أَنِّى أَعْفَيْتُ قَاتِلَ أَبِي مِنْ دَيْتِهِ » .

إن تلك الحكاية تحكى للدلالة على طلاقة قدرة الحق سبحانه .
مظلوم برىء يصلى ركعتين للخالق كما علمنا رسول الله
ﷺ فقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ^(١) ، إن
الإنسان عندما يقف بين يدى ربه ويتأجبه فالحق سبحانه
هو القادر وحده على أن يعطى الإنسان مسأله لأننا جميعاً فى
قبضته يفعل بنا ما يشاء وقت ما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب

(١) رواه أبو داود [١٣١٩] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه ،
وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [١١٧١] ، وأحمد فى
المسند [٣٨٨/٥] .

لحكمه ، فعليتنا أن نَصُدِّقَ في التوجه إليه ، ونخلص النية في الطلب ، ونكثر في الوقوف بين يديه ، فالصلاة لها شأن عظيم ، فهي ركن الإسلام الوحيد الذي فرض بالأمر المباشر من الله تعالى لرسوله ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج ^(١) .

(١) انظر كتاب : شرح حديث الإسراء والمعراج للشيخ الإمام ، باب : الصلاة هدية القرب للقرب ، وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي .

وقال الإمام القسري : الصلاة هي أكبر شعب الإسلام بعد الشهادة لله وللرسول ، فأما كونها من شعب الإسلام فَيَبِينُ في حديث جبريل وغيره من الأحاديث ؛ كيف وقد روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » ^(١) .

وصفتها وما تحتاج إليه من أمور كل ذلك مكتوب في =

(١) رواه الترمذی [٢٦٢١] ، وابن ماجه [١٠٧٩] ، والبيهقي في السنن الكبرى [٣٦٦/٣] ، وأحمد في المسند [٣٤٦/٥] ، والحاكم في المستدرک [٧،٦/١] ، وصححه الألباني في صحيح الترمذی [٢١١٣] .

= كتب الفقه ، وأقل ما يجزئ العبد في فعلها ما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه وجماعة من الرواة : أن رسول الله ﷺ دخل المسجد ، فدخل رجل فصلى ، ثم جاء فسلم على رسول الله ﷺ فَرَزَّدَ رسول الله ﷺ عليه السلام . قال : « ارجع فصل فإنك لم تصل » . فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ، ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « وعليك السلام » ثم قال : « ارجع فصل فإنك لم تصل » حتى فعل ذلك ثلاث مرات . فقال الرجل : والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا ، علمني . قال : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم اعمل ذلك في صلاتك كلها » ^(١) .

(١) أخرجه البخارى [٧٥٧] ، ومسلم [٤٥/٣٩٧] ، وأبو داود [٨٥٦] ، والترمذى [٣٠٣] ، والنسائى [١٢٤/٢] وابن ماجه [١٠٦٠] وأحمد فى المسند [٤٣٧/٢] .

= ومنها : فرائض كالصلوات الخمس ، وصلاة الجنائز ، وفي الآثار : أن اتباع الجنائز من الإيمان ، فهي شعبة من الإيمان - أعنى اتباع الجنائز - لأنها تذكر بالآخرة ، والوقوف بين يديه سبحانه والجزاء والثواب والعقاب ، لكننا اختصرنا ذكرها ؛ لأنها من جملة الصلوات فلم نفردها باباً .
ومنها : سنن كصلاة العيدين والامستسقاء والكسوف والوتر وركعتي الفجر .

ومنها : فضائل كسائر النوافل .

وتأدية الصلاة وإقامة ركوعها وسجودها وتلاوتها ظاهراً وإسلام ، فأما روح الصلاة وفهم معانيها في مقام الإيمان ومقام الإحسان ، فإن أولها بعد التطهير والنظافة والدخول على الملك ، الانتهاض إلى موضع الصلاة ، وهي البقعة المقدسة من مسجد مبنئ وغير مبنئ ، فالمراد بالانتهاض والمشي : انتهاض القلب والباطن وسيره ودخوله إلى عالم الملكوت وخروجه عن عالم الدنيا ؛ حتى يدخل إلى متعبد الملائكة الذي وجب الإيمان بهم في العالم المقدس ، الذي ليس فيه ما يشغل عن الصلاة . ثم القيام إلى الصلاة ، والمراد : قيام القلب إلى أعلى عليين =

= بين يدي الله تعالى .

ثم إحضار النية ، والمراد بها : التقرب إلى الله بالصلاة ، وإخراج ما في القلب سوى من أقبل عليه ، وذلك إشراف على من توجه إليه وغيبه من غيره ، فإذا أشرف على المطلوب برفع الحجب الشاغلة عن القلب وقع له تعظيم المتجلى له ، وخالطته حرمة واحترامه ، فحينئذ يحرم بتكبير الإحرام ؛ لأنه في موضع الاحترام والحرمة ، فيحرم عليه النظر إلى غيره والاشتغال بسواه فيقول : « الله أكبر » من أن يقبل على غيره أو يلتفت له من أجل ما عرف من جلالة القدر وعظيم الخطر ، أخذ في الثناء على الله بالفاتحة فيقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذي هو على ما هو عليه ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : سيد العالمين فتجلى له صفة السيادة لله التي استعبد بها العالمين على كثرتهم ، ويشئ عليه بصفاته ، ويناجيه بكلامه ، فيفهم من كلامه ومحادثته مع الله بفاتحة الكتاب والسورة ما يوجب له الخضوع بين يديه ، فيركع لزيادة التعظيم بشهادة أوصاف المتكلم معه ، فيقول : « الله أكبر » منحطاً للركوع أى : أكبر مما وقع في نفسى من تعظيمه .

= والمراد من ركوع الجسد : خضوع النفس والروح فى مقام الإيمان والإحسان بين يدى كبرياء الجليل العظيم .
ولذلك أمر أن يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » لما شاهد من معنى التعظيم الذى خضع له فيرفعه الله تعالى بكرمه إلى حالته الأولى التى هرب منها إلى الركوع ؛ لأن من تواضع لله ، أى : لأجل عظمة الله ، رفعه الله إليه ، فإذا رفعه إليه شاهد العبد نعمة الله عليه فى رفعه ، فيتدنى بالحمد والثناء فيقول : « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا » فيجد فى وقوفه طمأنينة حلوة المزيد ، والنعمة التى رفعه الله بها ، وهى استدعاؤه إلى القيام فخر ساجدا شاكرا لما أولاه ، فيضع وجهه على الأرض ظاهرا ونفسه وروحه تحت الثرى الذى ليس وراءه فى السفلى منتهى إلا نفوس العارفين والأولياء ؛ لأنهم لما هو عليه من الأسماء الحسنى والصفات العلى شهداء ، فيضع نفسه تحت كل تحت ، ولذلك ليس وراء السجود منتهى فى التواضع والتكبير مستصحب له ، ومعناه ، أى : الله أكبر مما شاهدت ووقع فى نفسى من تعظيمه وأعلى .
=

= فإذا وضع في السجود نفسه أسفل من كل سفل ، بالمعنى الذى هو الذل ، شاهد من سفله علاء ربه فقال : « سبحان ربى الأعلى » فاستدعاه ربه للرفوع والقرب من البعد والمنزل الذى أنزل نفسه في سجوده .

ومعنى التسييح فى الركوع والسجود : تنزيه الركوع له والمسجود له من حالة الركوع والسجود ، أى : سبحان من هو بخلاف حالة الركوع والسجود .

فلما استدعاه للرفوع قعد بالعجز بين يديه ؛ لأنه لم يطلق القيام لما شاهد فى السجود من الإجلال والإعظام ، فقعد بين يديه بالسكينة والعجز وأقر بالعجز له أن يقوم بشيء من حق قدر ربه ، ولذلك أمر أن يقول فى قعوده بين السجدين : « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم » ، فيجد رحمة الله قد غشيت ، والمغفرة قد غمرت ، لأنه تجلى له بوصف زائد على الوصف الأول من أجل أن الرحمة مقرونة بالضعف ومسرعة إلى الاستكانة ، فزاد سجوداً آخر بحكم وصف آخر ، فعاد بالتواضع الذى هو المراد من السجود ، حتى لو وجد أن يضع نفسه فى أسفل مما وضعها فيه لوضعها وقد وجد الله =

= مع كل رفع وخفض ، فإن الواجب على كل عبد أن يضع نفسه من التواضع في خلاف ما هو الله عليه من الجلال والعظمة ، وذلك لا يمكن أبدًا إلا مع التجلي وزيادة التعظيم ، فكلما زاد تجلي الصفات زاد التواضع بقدر ذلك أبدًا .
وكذلك لما زاد الإكرام زاد الشكر والثناء والتجلى دائمًا أبد الآبدين .

وكذلك التواضع دائم أبد الآبدين ، والشكر والثناء وجميع ما يليق بتجلي أوصاف الباري ، والحمد لله على ما هو عليه .
ثم يدعوه ربه إلى الاقتراب منه ، وهو معنى القيام إلى الركعة الثانية ، فيجربى له ما جرى له في الأول بحكم الزيادة ؛ لأن الصلاة إنما هي ركعة واحدة فيها تمت معاني الصلاة وغير ذلك من الركعات تكرير ، فلا يزال ذلك دأبه مع مولاه من فهم خطابه ، وشهود أوصافه في قيامه وانحطاطه ، ورفوعه وأذكاره وسجوده ، وجلوسه إلى آخر صلاته حتى يمتلي ظاهره وباطنه نورًا وبركة ورحمة وسرورًا وتواضعًا وحياءً ، وغير ذلك مما لا يحصى من أحوال المصلين العارفين الخاشعين ، فعند ذلك يقعد في آخر صلاته ، فيأخذ في التشهد والشهادة لله بما هو له أهل والثناء كما يجب ، وتفرد التحية والملك له ، والتركية =

.....
والتنزيه والمدح لبارئته بقول : « التحيات لله الزاكيات لله
الطيبات »^(١) .

وتفرد العبودية له بقوله : « الصلوات لله » ويسلم على أكرم
الوسطاء الذى هداه الله به إلى ما هو فيه محمد عليه الصلاة
والسلام ، ثم يقر بكل ما جاء به من عند الله ويصلى عليه .
فإذا فرغ من الإقرار والشهادة بكل ما جاء به محمد عليه
الصلاة والسلام من الإيمان من الغيوب والدعاء والسؤال ، فعند
ذلك تمت له النعم بتمام الصلاة وكمالها ، ووجب التحلل منها
بتمامها ، فأمر بالخروج إلى عالم الحس والملك فعند ذلك قال :
« السلام عليكم » ؛ لأنه كان فى الحضرة العلية خارجا عن
عالم الحس مودعا له ، كما قال محمد عليه الصلاة والسلام
« صل صلاة مودع »^(٢) .

-
- (١) رواه الترمذى [٢٨٩] ، وأبو داود [٩٧١] ، وابن ماجه [٨٩٩]
والنسائى [٢٣٧/٢] ، وأحمد فى المسند [٤١٣/١] .
(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٢٢٩/١٠] ، والزبيدى
فى إتحاف السادة المتقين [١٦١/٣] ، والمنذرى فى الترغيب
والترهيب [٢٤٧/٤] والألبانى فى الصحيحة [١٩١٤] .

= أى : لأنه خارج عن هذا العالم إلى الحضرة العلية ، فإذا قدم على هذا العالم وشاهد من حوله من الأملاك والإنس قال : « السلام عليكم » فيسلم على من على يمينه وشماله ، وقد حل له ما حرم عليه قبل ذلك ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « تحريمها التكبير وتحليلها التسليم » (١) .

فمن صحت له مثل هذه الصلاة وجبت له الكرامة عليها ، ومن اعترضه الوسواس فليجاهد يكتب له أجر المجاهد إذا فاتته معية الإحسان ، ومن اقتطعته الغفلات أمثالنا ، وغُدم النصيب الأوفر ومشاهدة المذكور الأكبر كتب له ما عقل ، وذلك فضل عظيم من الله ؛ لأن صلاته كانت فى موجب الأدب أسرع إلى العقوبة منها أن يكتب له ما عقل ؛ إذ لا يدري بين يدي من هو حتى يعرض إلى غيره بقلبه وهو واقف راکع ساجد بجسده . فعليه أن يكثر التنفل ؛ ليجبر ذلك النقص ، فإنه مطالب به كما ورد : أن التوافل جبر الفرائض ؛

(١) أورده الزيلعى فى نصب الراية [٣٠٧/١] ، وابن عبد البر فى التمهيد [١٨٢/٩] ، والقرطبى فى التفسير [٦٢/١٩] ، والهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠٤/٢] .

لأنه لم يؤدها على الوجه الذى يجب والمعنى الذى أمر به ،
ولم يكلف الله الخلق من العبادة إلا ما يطيقون ، لكن شغلهم
بغير ذكر الله حرمهم واقتطعهم عما افترض عليهم .
ونسأل الله الكريم أن يتغمدنا برحمته ، ويتجاوز عن ذنوبنا
وتصيرنا برحمته ، فلو لم تكن لنا ذنوب إلا التقصير فى أداء
الفرائض لكان كافياً .

فهذا هو روح الصلاة من حيث المعنى .
وقد انتظم فيما تقدم من الكلام المقامات الثلاثة من الإسلام
والإيمان والإحسان . فافهم .
وأما فهم الصلاة من جهة تركيبها وتفاصيل أعضائها وهيئاتها ،
فإنها على صورة عبادة العالم الكلى ، وعلى هيئة صلاة
العابدين فيه .

فالقيام إلى الصلاة ليكون مع الذين يرجون إلى الله تعرج
الملائكة ؛ ليكون مع الراكعين الخاضعين ، والرفوع ليكون مع
الصاغرين والسجود ليكون مع الساجدين والفكر والجولان
بافهم والعقل ليكون مع السائحين السابحين الدائرين
والحضور ؛ ليكون مع الحاضرين الروحانيين ، ووجود =

= الراحة والتعيم بها ؛ ليكون مع الملائكة المقربين المشتاقين المحبين ،
والخشوع ؛ ليكون مع الخائفين والمكروبين ، والجاهدة
بالأذكار ؛ ليكون راجعاً للشياطين كالفلكيين ، وإلقاء السمع مع
المراقبين ورمز المعاني في دعاء الفهم ؛ ليكون مع الحافظين الكاتبين .
ومع هذا كله فلا يقوم بشيء من حق الله عز وجل لعظيم ما
هو الله عليه من جلال القدر وعظيم الخطر ، لكن يجد الراحة
في شهود المنة ؛ إذ هو ربه على ما هو عليه من أوصافه ومع
ذلك استدعاه إلى أن يكون من عباده المؤمنين ، فيستشعر في
نفسه ذلك ويقول : كيف ذكرني هذا الملك العظيم في نفسه
حتى ينزل من جلال كبريائه إلى صفات جناته ورحمته حتى
كلمني بكلامه ، واستدعاني لأن أكون من جملة المصلين من
عباده ١٩ فينوي ويتمني ويود في نفسه أن لو كان تقرب إليه
بعبادة الخلق أجمعين على غاية الصفاء لو قدر على ذلك ،
فبهذا تفهم قوله : « نية المؤمن خير من عمله » (١) . =

(١) رواه الطبراني في الكبير [٥٩٤٢/١٨٥/٦] ، وهو في
مسند الشهاب [١٤٨/١١٩/١] وقال الهيثمي في =

= ثم يشهد عجزه وتقصيره عن ذلك ، فيرجع إلى رؤية التقصير والاستغفار من قلة القيام ببعض الواجب ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يستغفر بعد كل صلاة مرات ، وورد ذلك في الصحيح ، فيتوب من الحسنات كما يتوب العاصي من السيئات ؛ لأن : حسنات الأبرار سيئات المقربين .
ولذلك تقول الملائكة يوم القيامة : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، على صفاء عبادتها من شوب الكدورات ، وهذا المعنى الذى تقوله الملائكة هو الذى قاله النبى عليه الصلاة والسلام فى قوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله » .
قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ =

= مجمع الزوائد [٦١/١] ورجاله موثقون إلا حاتم بن عباد ابن دينار الجرشى ، لم أر من ذكر له ترجمة وقال [١٠٩/١] : وفيه حاتم بن عباد بن دينار ، لم أعرفه وبقيّة رجاله ثقات ، وقال المناوى : أطلق الحافظ العراقى أنه ضعيف من طريقه .

= قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل »^(١).
مع اجتهاده وصفات أحواله ، وليس معناه أن العمل ليس ينفع
فيكون قوله محرضاً على ترك العمل ، بل قوله هذا مرغّب في
الاجتهاد لجميع ما يقرب إلى الله تعالى فبه عليه الصلاة
والسلام على عظيم حق الله تعالى الموجب لرؤية التقصير .
فالعبادات كلها لها وجهان ، تنظر منهما مرة بنظر من مقام
العبودية ومشاهدة الربوبية ، وهو من هذا الوجه الذي ذكرناه ،
فتعرف مقدار المعبود ، وما تقع عبادتك في حقه وجلالة قدره ،
فتكون عبادة الخلق أجمعين في ذلك أقل من غرز إبرة في بحر
لجئ فيؤلّد هذا النظر الإجهاد والانكسار والخضوع والذلة
والفقر إلى الله ، وجميع صفات العبودية الحسنى ، التي ساعة
واحدة منها خير من عبادة ستين سنة . ومرة ينظر من مقام المنّة ،
وكيف ذكر الملك الأكبر الذي استعبد العرش بما حوى في
نفسه لهذا العبد الذي لا يدري من هو في كثرة عباد الله وممالكه ،
وكيف ارتضاه للإيمان به ، واستدعاه لعبادته ومناجاته وللقرب
منه حتى يجعله من جلسائه ، كما قال : أنا جليس من ذكرني =

(١) أخرجه مسلم [٧٣/٢٨١٦] ، وأحمد في المسند [٥٠٩/٢]
واللفظ له .

= فيتولد من هذا النظر أيضًا أحوال كريمة ، لا يعلم حقيقتها إلا العارفون مثل الحياء الكائن عن الحضور ، والشكر الحادث عن رؤية المنّة ، والمحبة المتولدة عن إحسان الله .

إلى غير ذلك مما يشرحه الله في قلوب المختصين بهذا المقام ، وهو معنى قول الله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أى ذكر الله للعبد فى نفسه أكبر من كل ما يتقرب به إليه ، فعلى هذين الوجهين من النظر درج العارفون فى علومهم وأعمالهم ، وبهما تزكو الأعمال عند الله ، نسأل الله الكريم أن يَمُنَّ علينا بما مَنَّ عليهم فى الدنيا والآخرة إنه ولى ذلك والقادر عليه .

واعلم أن الوجود كله بأجزائه مُصَلٌّ لله بدوام وجود الوجود ، لا ينفك عن الصلاة ، فإنه فى مقام العبودية لله . فمن أدام النظر رأى الوجود كله ظاهراً وباطناً مصلّياً .

ومن ترك الصلاة فقد خالف الخليفة كلها ، ولذلك يحشر مع فرعون وهامان كما ورد فى بعض الأخبار : أن تارك الصلاة يحشر مع فرعون وهامان ؛ لأنه تأبى من العبودية والتواضع لله كما فعل فرعون . فافهم .



= فإن الذى لا يخضع لأحد هو الله وحده ، فمن صلى بجسده
وفعل أركان الصلوات كما أمر ظاهراً ، وأنزل نفسه مع كل
ركن منها ومعنى من معانيها الباطنة ، وفهم روحه وعقله تلك
المعاني ، وشهد المراد بكل ركن منها ومعنى من معانيها ؛ فقد
صلى بجسد ، وفعل أركان الصلوات كما أمر بظاهره وباطنه
وجملته فى عالم الحس ومقام الإسلام ، وفى عالم الغيب
ومقام الإيمان ، وفى غيب الغيب ومقام الإحسان ، ووجد
طعم المعاني الثلاث .

مَنْ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بِالْكَمَالِ فِي كُلِّ شَيْءٍ . آمِينَ بِسْمِهِ
وَرَحْمَتِهِ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

شعب الإيمان [ص : ١١٩ : ١٢٦] .

الكسل عن الصلاة علامة من علامات النفاق

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾ [النساء : ١٤٢]
كيف يقومون إلى الصلاة كسالى ؟ إن الغايات من الأحداث
هى التى تضى على الجوارح الإقبال على الأحداث ، فإذا
كان الحدث الذى تقبل عليه حدثاً تحبه فأنت تقبل عليه بكل
اشتياق ولهفة ، ولذلك يقيسون لهفة اللقاء فهى التى تحدد
درجة المحبة .

ولنفرض مثلاً أن رجلاً وزوجته يتقابلان بعد طول غياب
ما الذى يبين حد الود بينهما ؟ إن لحظة اللقاء تبين ما بينهما
من مودة ، فإن كانت المسافة بينهما عشر خطوات فكم خطوة
خطاها الاثنان وبأية سرعة ؟ إنهما قد يسرعان باللهفة فيقطعان
الخطوات العشر فى ثلاث خطوات مثلاً ، وهذا معناه : تقصير
زمن اللقاء ، وأيضاً ما الكيفية التى يتم بها السلام ؟ هل

يسلم أحدهما على الآخر يرود ، أم بنصف ود أم بود كبير
أم بود مصحوب بلهفة وعناق ؟ ثم ما المدة التى يقع خلالها
الاحتضان هل هى دقيقة أم دقيقتان أم ثلاث ؟

إذن .. فالذى يبين قيمة الود هو التلهف فى المدة ، وهذه
العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين
البشر ، وقديماً كان المتيمون بالنساء يسترون فى السلام
مودتهم .

وقيل : إنك إذا أردت أن تعرف المودة بين رجل وامرأة
ومدى لهفة كل منهما على الآخر ، وتحكم بذلك ، فلا بد أن
تعرف ما الكيفية التى يتم بها اللقاء ؟ فإذا ما صافح الرجل
المرأة .. فهل يصافحها بتلهف ؟ وهل تبادله هذه اللهفة ؟ فإن
وجدت الكف مفرودة للمصافحة فقط فهذا سلام عادى ، أما
إذا أثنى أحدهما إصبعه البنصر على كف الآخر فعليك أن ترى
أى طرف هو الذى قام بثنى إصبعه ليحتضن اليد كلها فى يده ،
فإن كان ذلك هو الرجل فاللهفة منه ، وإن كان من المرأة
فاللهفة منها ، وإن كان من الاثنين فاللهفة منهما معاً .

هكذا يقابل الإنسان الأحداث ، فإن كان الحدث ساراً فالإنسان يقبل عليه بلهفة ، وإن لم يكن الحدث ساراً فالإنسان يقوم إليه متثاقلاً ، وهكذا كان يقوم المنافقون إلى الصلاة : ﴿ كَسَالَى ﴾ كأنهم يؤدون الصلاة يخفون بها نفاقهم ويسترون أنفسهم عن أعين المسلمين .

إن قيامهم إلى الصلاة لم يكن شوقاً إلى لقاء الله مثلما كان يقول رسول الله ﷺ لبلال رضي الله تعالى عنه : « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها يا بلال » ^(١) ولم يقل أرحنا منها يا بلال . إن المؤمن يرتاح عندما يؤدي الصلاة ، أما المنافق فهي عملية شاقة بالنسبة إليه ، إنه يؤديها ليستتر بها عن أعين المسلمين ، لذلك يقوم إليها وهو كسلان .

قال الله تعالى عنهم : ﴿ يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] لماذا إذن يقومون إلى الصلاة ما داموا غير مؤمنين بها ؟ إنهم يُقِيمُونَ الصلاة ظاهرياً أمام الناس ليخدعوا الناس ، وحتى يراهم المسلمون وهم يصلون ، وهم في هذه الصلاة التي يراءون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم

(١) رواه أبو داود [٤٩٨٥] عن مسعر رضي الله تعالى عنه . وقال الألباني : صحيح .

لتمام الصلاة .. إنهم يقولون المطلوب قوله جهراً ، ولا يقومون بما يفترضه الله عليهم ، والمطلوب لتمام الصلاة ما يفعل سرّاً وجهراً مثال ذلك أنهم يقرءون الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم أثناء الركوع لا يسبحون باسم الله العظيم وكذلك في السجود إنهم يؤدون الجانب الجهري من الصلاة ولا يؤدون الجانب الآخر . إن في داخل المنافق تيارين متعارضين : تيار يظهر به أنه مع المؤمنين وتيار آخر مع الكافرين ؛ إن التيار الذي مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ، والتيار الذي مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، والتيار الذي مع المؤمنين يجعله يذكر الله قليلاً ، والتيار الذي مع الكافرين يجعله لا يذكر الله ومن هنا فقد جاء في وصف رسول الله ﷺ لصلاة الفجر أنها صلاة ثقيلة على المنافقين (١) .

(١) أخرج مسلم [٢٥٢/٦٥١] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً . ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ، ثم أمر رجلاً فيصلى بالناس . ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب ، إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » .

صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير حتى التسليم كأنك تراها

كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة واستقبل القبلة ووقف في مُصلاه رفع يديه إلى فروع أذنيه ^(١) واستقبل بأصابعه القبلة ونشرها ^(٢) وقال : « الله أكبر » .
ولم يكن يقول قبل ذلك : نويت أن أصلي كذا وكذا مستقبل القبلة أربع ركعات فريضة الوقت أداءً لله تعالى إمامًا ، ولا كلمة واحدة من ذلك في مجموع صلاته من أولها إلى آخرها .

فقد نقل عنه أصحابه حركاته وسكناته وهيئاته حتى اضطراب لحيته في الصلاة ، حتى إنه حمل بنت ابنته مرة في

(١) أخرجه مسلم [٢٥/٣٩١] ، وأبو داود [٧٤٥] ، وابن ماجه [٨٥٩] ، وأحمد في المسند [٤٣٦/٣] ، [٤٣٧] عن مالك بن الحويرث رضى الله تعالى عنه .

(٢) رواه الترمذى [٢٣٩] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه . وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٣٧] .

.....
الصلاة فنقلوه ولم يهملوه^(١)، فكيف يتفق ملأهم من أولهم إلى آخرهم على ترك نقل هذا المهم الذى هو شعار الدخول فى الصلاة ؟ ولعمر الله لو ثبت عنه من هذا كلمة واحدة لكُنَّا أول من اقتدى به فيها ، وبادر إليها .

ثم كان يمسك شماله يمينه فيضعها عليها فوق المفصل^(٢)
ثم يضعها على صدره^(٣) ثم يقول : « سبحانك ، اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد »^(٤) .

(١) أخرجه البخارى [٥١٦، ٥٩٩٦] ، ومسلم [٤١/٥٤٣] عن
أبى قتادة رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٥٤/٤٠١] ، وأحمد فى المسند [٤/
٣١٨، ٣١٧] عن وائل بن حجر رضى الله تعالى عنه .

(٣) رواه أبو داود [٧٥٩] عن طاوس وصححه الألبانى فى
صحيح أبى داود [٦٨٧] .

(٤) أخرجه البخارى [٧٤٤] ، ومسلم [١٤٧/٥٩٨] ، وأبو
داود [٧٨١] من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

وكان يقول أحياناً : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً مسلماً وما أنا من المشركين ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَيَذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴾ [الأنعام] ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت وأنا عبدك ، ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » . ولكن هذا إنما يحفظ عنه في صلاة الليل^(١) .

وربما كان يقول : « الله أكبر كبيراً الله أكبر كبيراً ،

(١) أخرجه مسلم [٢٠١/٧٧١] ، وأبو داود [٧٦١] عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه .

والحمد لله كثيراً والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً^(١) .

وربما كان يقول : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا أنت ، لا إله إلا أنت ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله وبحمده . ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وربما قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه ، وربما قال : اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه »^(٢) . ثم يقرأ فاتحة الكتاب^(٣) ، فإن كانت الصلاة

(١) رواه أبو داود [٧٦٤] ، وابن ماجه [٨٠٧] ، وأحمد في المسند [٨٥، ٨٠/٤] عن المطعم رضى الله تعالى عنه ، وضعفه الألبانى. فى ضعيف ابن ماجه [١٧٣] .

(٢) رواه أبو داود [٧٧٥] ، والترمذى [٢٤٢] ، وابن ماجه [٨٠٤] ، وأحمد فى المسند [٥٠/٣] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٧٠١] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه .

(٣) أخرجه البخارى [٧٥٦] ، ومسلم [٣٤/٣٩٤] ، وأبو داود [٨٢٢] عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه .

جهرية أسمعهم القراءة ولم يسمعهم : ﴿ يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴾^(١) فربه أعلم هل كان يقرؤها أم لا ؟ وكان يقطع قراءته آية آية ، ثم يقف على ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم يتدئ ﴿ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴾ ويقف ثم يتدئ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ على رسل وتمهل وترتيل بمد الرحمن ومد الرحيم ، وكان يقرأ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ بالألف^(٢) . وإذا ختم السورة قال : « آمين » يجهر بها ويمد بها صوته ويجهر بها من خلفه^(٣) حتى يرجع المسجد .

(١) أخرجه البخارى [٧٤٣] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه : أن النبى ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يفتحون الصلاة بـ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وينحوه الترمذى [٢٤٦] ، ومسلم [٥٠/٣٩٩] .

(٢) رواه أحمد فى المسند [٣٠٢/٦] ، وأبو داود [٤٠٠١] ، والترمذى [٣١٠٧] عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٣٣٦] .

(٣) رواه أبو داود [٩٣٢] ، والترمذى [٢٤٨] عن وائل بن حجر ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٨٢٤] .

واختلفت الرواية عنه هل كان يسكت بين الفاتحة وقراءة السورة ، أم كانت سكتة بعد القراءة كلها ؟ فقال يونس عن الحسن عن سمرة : حفظت سكتتين ، سكتة إذا كبر الإمام حتى يقرأ . وسكتة إذا فرغ من فاتحة الكتاب وسورة عند الركوع ، وصدقه أبي بن كعب على ذلك^(١).

ووافق يونس أشعث الحمراني عن الحسن فقال : سكتة إذا استفتح ، وسكتة إذا فرغ من القراءة كلها^(٢).

وخالفهما قتادة فقال عن الحسن : إن سمرة بن جندب وعمران بن الحصين تذاكرا ، فحدث سمرة أنه حفظ عن رسول الله ﷺ سكتتين : سكتة إذا كبر ، وسكتة إذا فرغ من قراءة ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ فقط . فحفظ

-
- (١) رواه أبو داود [٧٧٧] ، وابن ماجه [٨٤٥] ، وأحمد في المسند [١٢/٥] عن سمرة رضى الله تعالى عنه وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه [١٨١] وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات .
- (٢) رواه أبو داود [٧٧٨] عن سمرة رضى الله تعالى عنه ، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [١٦٤] .

.....
ذلك سمرة وأنكر عليه عمران بن الحصين ، فكتبنا في ذلك إلى أبي بن كعب ، فكان في كتابه أن سمرة قد حفظ .

وقال قتادة أيضًا عن الحسن عن سمرة : سكتان حفظهما عن رسول الله ﷺ إذا دخل في الصلاة وإذا فرغ من القراءة ، ثم قال بعد : وإذا قال : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ^(١) . فقد اتفقت الأحاديث أنهما سكتان فقط ، إحداهما سكتة الافتتاح ، والثانية مختلف فيها . فالذى قال : إنها بعد قراءة الفاتحة هو قتادة ، وقد اختلف عليه سمرة ، فمرة قال ذلك ، ومرة قال : بعد الفراغ من القراءة ، ولم يختلف على يونس وأشعث أنها بعد فراغه من القراءة كلها ، وهذا أرجح الروایتين . والله أعلم ^(٢) .

(١) رواه أبو داود [٧٧٩، ٧٨٠] ، والترمذي [٢٥١] ، وابن ماجه [٨٤٤] ، وأحمد [٧/٥] عن سمرة بن جندب رضى الله تعالى عنه ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٦٥، ١٦٦] .

(٢) رواه الدارمى [٢٨٣/١] ، وأحمد فى المسند [١٥/٥، ٢٠، ٢١] عن سمرة بن جندب .

وبالجملة فلم ينقل عنه عليه السلام بإسناد صحيح ولا ضعيف أنه كان يسكت بعد قراءة الفاتحة حتى يقرأها من خلفه ، وليس في سكوته في هذا المحل إلا هذا الحديث المختلف فيه كما رأيت ، ولو كان يسكت هنا سكتة طويلة يدرك فيها قراءة الفاتحة لما اختفى ذلك على الصحابة ، ولكان معرفتهم به ونقلهم أهم من سكتة الافتتاح .

ثم يقرأ بعد ذلك سورة طويلة تارة ، وقصيرة تارة ، ومتوسطة تارة كما تقدم ذكر الأحاديث به .

ولم يكن يتدبّر من وسط السورة ولا من آخرها ، وإنما كان يقرأ من أولها ، فتارة يكملها وهو أغلب أحواله ، وتارة يقتصر على بعضها ويكملها في الركعة الثانية .

ولم ينقل أحد عنه أنه قرأ بآية من سورة أو بآخرها إلا في سنة الفجر ، فإنه كان يقرأ فيها بهاتين الآيتين : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، ﴿ قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُونَ عَمَلُهُمْ إِلَىٰ كَلِمَتٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ^(١) [آل عمران : ٦٤] .

(١) ذكره النووي في الأذكار : ما يقوله إذا دخل في الصلاة باب القراءة بعد التعوذ .

وكان يقرأ بالسورة في الركعة ، وتارة يعيدها في الركعة الثانية ، وتارة يقرأ سورتين في الركعة .
أما الأول : فנקול عائشة أنه قرأ في المغرب بالأعراف فَرَقَهَا في الركعتين^(١) .

وأما الثاني : فقراءته في الصبح ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ في الركعتين كليهما ، والحديثان في السنن^(٢) .

وأما الثالث : فנקول ابن مسعود : ولقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينها ، فذكر ثمان عشر سورة من المفصل وسورتين من آل حم وهذا في الصحيحين^(٣) .

وكان يمد قراءة الفجر ويطيلها أكثر من سائر الصلوات ،

(١) رواه النسائي [١٧٠/٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها .

(٢) رواه أبو داود [٨١٦] عن رجل من جهينة ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [٧٣٠] .

(٣) أخرجه البخاري [٥٠٤٣] ، ومسلم [٢٧٥/٨٢٢] عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه .

وأقصر ما حفظ عنه أنه كان يقرأ بها فيها في الحضر ﴿قَ﴾ ونحوها .

وكان يجهر بالقراءة في الفجر والأولين من المغرب والعشاء ويسر فيما سوى ذلك ، وربما كان يسمعهم الآية في قراءة السر أحياناً .

وكان يقرأ في فجر يوم الجمعة سورة السجدة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ﴾ و ﴿هَلْ أَتَى﴾ كاملتين ، ولم يقتصر على إحداهما ولا على بعض هذه فقط ، وكان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة ﴿الْجُمُعَةِ﴾ و ﴿الْمُتَفِقُونَ﴾ كاملتين ، ولم يقتصر على أواخرهما ، وربما كان يقرأ بسورة ﴿الْأَعْلَى﴾ و ﴿الْفَتْشِيَّة﴾ .

وكان يقرأ في العيدين بسورة ﴿قَ﴾ و ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ﴾ كاملتين ، ولم يقتصر على أواخرهما .

وكان يقرأ في صلاة السر سورة فيها « السجدة » أحياناً فيسجد للسجدة ، ويسجد معه من خلفه .

وكان يقرأ في الظهر قدر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ﴾ السجدة ونحو ثلاثين آية ، ومرة كان يقرأ فيها بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ،

و ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ، و ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ، و ﴿وَالنَّجْمِ
وَالطَّارِقِ﴾ ونحوها من السور ، ومرة ب ﴿لُقْمَنُ﴾ ،
﴿وَالذَّارِيَةِ﴾ .

وكان يقوم فى الركعة الأولى منها حتى لا يسمع وقع قدم ،
وكذلك كان يطيل الركعة الأولى من كل صلاة على الثانية .
وكانت قراءته فى العصر فى الركعتين الأوليين فى كل ركعة
قدر خمس عشرة آية .

وكان يقرأ فى المغرب ب ﴿الْأَعْرَافِ﴾ تارة ، و ﴿وَالطُّورِ﴾
تارة و ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ تارة ، وبالـ ﴿دُحَانُ﴾ تارة ، وروى عنه أنه
قرأ فيها ب ﴿قُلْ يَتَّابِعُهَا الْكَافِرُونَ﴾ ، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾
تفرد به ابن ماجه ، ولعل أحد رواته وهم من قراءته بهما فى سنة
المغرب ، فكان يقرأ بهما فى سنة المغرب فقال : كان يقرأ بهما
فى المغرب أو سقطت « سنة » من النسخة . والله أعلم .

وكان يقرأ فى العشاء الآخرة ب ﴿وَالنِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾
وسورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ويسجد فيها جميع من خلفه ،
و ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ونحو ذلك من السور .

وكان إذا فرغ من القراءة سكّت هنيئة ليرجع إليه نفسه .
ثم كان يرفع يديه إلى أن يحاذي بهما فروع أذنيه كما
رفعهما في الاستفتاح صح عنه ذلك كما صح التكبير للركوع
بل الذين رَووا عنه رفع اليدين ههنا أكثر من الذين رَووا عنه
التكبير ، ثم يقول : « الله أكبر » ويخر راکعًا ويضع يديه على
ركبتيه فيمكنهما من ركبتيه ، وفرج بين أصابعه وجافى مرفقيه
عن جنبيه ، ثم اعتدل وجعل رأسه حيال ظهره فلم يرفع رأسه
ولم يصوبه ، وهصر ظهره أى : مده ولم يجمعه ^(١) ، ثم قال :
« سبحان ربى العظيم » ^(٢) .

- (١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٨٢٨] ، وأبو داود
[٩٦٦، ٧٣٣، ٧٣٠] ، والترمذى [٣٠٥، ٣٠٤] ، وابن ماجه
[١٠٦١] عن أبى حميد الساعدى رضى الله تعالى عنه .
(٢) رواه أبو داود [٨٦٩] ، وابن ماجه [٨٨٧] ، وأحمد فى
المسند [١٥٥/٤] عن عقبه بن عامر ، وضعفه الألبانى فى
ضعيف أبى داود [١٨٤] .

وروى عنه أنه كان يقول : « سبحان ربي العظيم وبحمده » .
قال أبو داود : وأخاف أن لا تكون هذه الزيادة محفوظة ^(١) .
وربما مكث قدر ما يقول القائل عشر مرات ، وربما مكث
فوق ذلك ودونه ^(٢) . وربما قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ،
اللهم اغفر لي » ^(٣) .

(١) رواه أبو داود [٨٧٠] عن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه ،
وضعه الألبانى فى ضعيف أبى داود ، وصحح الألبانى هذه
الزيادة فى صفة الصلاة [٧٧:٥٩] .

(٢) روى أبو داود [٨٨٨] ، وأحمد فى المسند [١٦٣، ١٦٢/٣]
عن وهب بن مأنوس قال : سمعت سعيد بن جبير يقول : « ما
صليت وراء أحد بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ
من هذا الفتى » . يعنى : عمر بن عبد العزيز ، فحرزنا فى
ركوعه عشر تسبيحات وفى سجوده عشر تسبيحات .
وضعه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٨٩] .

(٣) أخرجه البخارى [٧٩٤] ، ومسلم [١٧/٤٨٤] عن عائشة
رضى الله تعالى عنها .

وربما قال : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح »^(١) ، وربما قال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، وعليك توكلت ، أنت ربي ، خشع قلبي وسمعي ، وبصري ودمي ، ولحمي وعظمي وعصبي لله رب العالمين »^(٢) .
 وربما كان يقول : « سبحان ذي الجبروت والمملوك ، والكبرياء والعظمة »^(٣) . وكان ركوعه مناسبا لقيامه في التطويل والتخفيف ، وهذا بين في سائر الأحاديث^(٤) .

- (١) أخرجه مسلم [٢٢٣/٤٨٧] ، وأبو داود [٨٧٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها .
 - (٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٠٢/٧٧١] ، وأبو داود [٧٦٠] عن علي رضي الله تعالى عنه .
 - (٣) رواه أبو داود [٨٧٣] عن عوف بن مالك الأشجعي وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٧٧٦] .
 - (٤) أخرجه البخاري [٧٩٢] ، ومسلم [١٩٣/٤٧١] ، وأبو داود [٨٥٤، ٨٥٢] ، والترمذي [٢٨٠، ٢٧٩] وغيرهم . عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه .
- قال ابن القيم : ولا يناقض هذا ما رواه البخاري في =

ثم كان يرفع رأسه قائلاً : « سمع الله لمن حمده » ^(١) ويرفع يديه كما يرفعهما عند الركوع ، فإذا اعتدل قائماً قال : « ربنا لك الحمد » ^(٢) ، وربما قال : « اللهم ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد

= هذا الحديث : « كان ركوع النبي ﷺ وسجوده وما بين السجدين وإذا رفع رأسه ما خلا القيام والقعود قريباً من السواء » فإن البراء هو القائل هذا وهذا ، فإنه في السياق الأول أدخل في ذلك قيام القراءة وجلوس التشهد ، وليس مراده أنهما بقدر ركوعه وسجوده ، وإلا ناقض السياق الأول والثاني ، وإنما المراد أن طولهما كان مناسباً لطول الركوع والسجود والاعتدالين بحيث لا يظهر التفاوت الشديد في طول هذا ، وقصر هذا .

- (١) أخرجه مسلم [٥/٣٩١] عن مالك بن الحويرث رضى الله عنه .
 (٢) أخرجه البخارى [٣٢٢٨] ومسلم [٧١/٤٠٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

منك الجدة^(١) وربما زاد على ذلك : اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد ، اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ^(٢) ، وكان يطيل هذا الركن حتى يقول القائل قد نسى ، وكان يقول فى صلاة الليل فيه :
« لربى الحمد ، لربى الحمد »^(٣) .

ثم يكبر ويختر ساجداً ولا يرفع يديه^(٤) ، وكان يضع ركبتيه قبل يديه ، هكذا قال عنه وائل بن حجر^(٥) وأنس بن مالك^(٦) .

(١) أخرجه مسلم [٢٠٥/٤٧٧] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٢٠٤/٤٧٦] عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله تعالى عنه .

(٣) رواه أبو داود [٨٧٤] ، والنسائى [٢/١٩٩-٢٠٠] ، وأحمد فى المسند [٣٩٨/٥] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه .

(٤) أخرجه البخارى [٧٣٨] ، وأبو داود [٧٢٣] ، وأحمد فى المسند [٣١٧/٤] عن وائل بن حجر رضى الله تعالى عنه .

(٥) رواه أبو داود [٨٣٨] ، والترمذى [٢٦٨] ، وابن ماجه [٨٨٢] عن وائل بن حجر ، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [١٨١] .

(٦) رواه الدارقطنى [٣٤٥/١] ، والحاكم [٢٢٦/١] .

قال عنه ابن عمر إنه كان يضع يديه قبل ركبتيه ^(١) .
واختلف على أبي هريرة ، ففي السنن عن النبي ﷺ : « إذا
سجد أحدكم فلا يرك كما يرك البعير وليضع يديه قبل
ركبتيه » ^(٢) .

وروى عنه المقبرى عن النبي ﷺ : « إذا سجد أحدكم فليبدأ
بركبتيه قبل يديه » ^(٣) ، فأبو هريرة قد تعارضت الرواية عنه ،
وحديث وائل وابن عمر قد تعارضا ، فرجحت طائفة حديث
ابن عمر ، ورجحت طائفة حديث وائل بن حجر ، وسلكت
طائفة مسلك النسخ وقالت : كان الأمر الأول وضع اليدين

(١) رواه الطحاوى فى شرح معانى الآثار [٢٥٤/١] عن ابن عمر
رضى الله تعالى عنهما .

(٢) رواه أبو داود [٨٤٠] ، والنسائى [٢٠٧/٢] ، وأحمد فى
المسند [٣٨١/٢] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه
وصححه الألبانى فى صحيح أبي داود [٧٤٦] .

(٣) رواه البيهقى فى السنن [١٠٠/٢] وفيه : المقبرى ، وهو
متروك الحديث ، انظر الجرح والتعديل [٧١/٥] .

.....
 قبل الركبتين ثم نسخ بوضع الركبتين أولاً ، وهذه طريقة ابن خزيمة في ذكر الدلائل على أن الأمر بوضع اليدين عند السجود منسوخ ، فإن وضع الركبتين قبل اليدين ناسخ ، ثم روى عن مصعب بن سعد قال : كنا نضع اليدين قبل الركبتين فأمرنا بوضع الركبتين قبل اليدين ^(١) ، وهذا لو ثبت لكان فيه الشفاء ، لكن يحيى بن سلمة بن كهيل قال البخاري : عنده مناكير ، وقال ابن معين : ليس بشيء لا يكتب حديثه ، وقال النسائي : متروك الحديث . وهذه القصة وهم فيها يحيى أو غيره ، وإنما المعروف عن مصعب بن سعد عن أبيه نسخ التطبيق في الركوع بوضع اليدين على الركبتين ، فلم يحفظ هذا الراوى وقال : المنسوخ وضع اليدين قبل الركبتين .

قال السابقون باليدين : قد صح حديث ابن عمر فإنه من

(١) رواه ابن خزيمة [٦٢٨] ، والبيهقي في السنن [١٠٠/٢] من طريق إبراهيم بن إسماعيل عن أبيه عن جده ، وإبراهيم ضعيف ، وأبوه متروك ، وجده متروك ، انظر تهذيب التهذيب [٢١٥/١١] .

رواية عبيد الله عن نافع عنه ، قال ابن أبي داود : وهو قول أهل الحديث .

قالوا : وهو أعلم بهذا من غيرهم ، فإنه نقل محض .
قالوا : وهذه سنة رواها أهل المدينة وهم أعلم بها من غيرهم ،
قال ابن أبي داود ولهم فيها إسنادان :
أحدهما : محمد بن عبد الله بن حسن عن أبي الزناد عن
الأعرج عن أبي هريرة .

والثاني : الدراوردي عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر .
قالوا : وحديث وائل بن حجر له طريقان وهما معلولان ،
في أحدهما شريك تفرد به ، قال الدارقطني : وليس بالقوى
فيما يتفرد به .

والطريق الثاني : من رواية عبد الجبار بن وائل عن أبيه
ولم يسمع من أبيه ^(١) .

(١) رواه أبو داود [٨٣٩] عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه رضي الله
تعالى عنهما ، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [١٨٢] .

وقال السابقون بالركبتين : حديث وائل بن حجر أثبت من حديث أبي هريرة وابن عمر ، قال البخاري : حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة لا يتابع عليه ، فيه محمد بن عبد الله بن الحسن قال : ولا أدري سمع من أبي الزناد أم لا ؟ وقال الخطابي : حديث وائل بن حجر أثبت منه ، قال : وزعم بعض العلماء أنه منسوخ ؛ ولهذا لم يحسنه الترمذي وحكم بغرابته وحسن حديث وائل .

قالوا : وقد قال في حديث أبي هريرة : « لا يترك كما يترك البعير » ، والبعير إذا برك بدأ يديه قبل ركبتيه ، وهذا المعنى لا يمانع قوله : « وليضع يديه قبل ركبتيه » بل ينافيه ويدل على أن هذه الزيادة غير محفوظة ، ولعل لفظها انقلب على بعض الرواة . قالوا : ويدل على ترجيح هذا أمران آخران :

أحدهما : ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر : « أن رسول الله ﷺ نهى أن يعتمد الرجل على يديه في الصلاة »^(١) ،

(١) رواه أبو داود [٩٩٢] ، وأحمد في المسند [١٤٧/٢] ، وانظر الذي بعده .

وفى لفظ : « نهى أن يعتمد الرجل على يديه إذا نهض فى الصلاة »^(١) ولا ريب أنه إذا وضع يديه قبل ركبتيه اعتمد عليهما ، فيكون قد أوقع جزءاً من الصلاة معتمداً على يديه بالأرض ، وأيضاً فهذا الاعتماد بالسجود نظير الاعتماد فى الرفع منه سواء ، فإذا نهى عن ذلك كان نظيره كذلك .

الثانى : أن المصلى فى انحطاطه ينحط منه إلى الأرض الأقرب إليها أولاً ، ثم الذى من فوقه ثم الذى من فوقه حتى ينتهى إلى أعلى ما فيه وهو وجهه فإذا رفع رأسه من السجود ارتفع أعلى ما فيه أولاً ، ثم الذى دونه حتى يكون آخر ما يرتفع منه ركبته . والله أعلم .

ثم كان يسجد على جبهته وأنفه ويديه وركبتيه وأطراف قدميه^(٢) ويستقبل بأصابع يديه ورجليه القبلة ، وكان يعتمد

(١) رواه أبو داود [٩٩٢] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه ، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٨٧٥] : صحيح إلا لفظ ابن عبد الملك فإنه منكر .

(٢) جزء من حديث أبى حميد الساعدى سبق تخريجه .

على إلتى كفيه ويرفع مرفقيه ويجافى عضديه عن جنبه حتى يبدو بياض إبطيه ، ويرفع بطنه عن فخذه وفخذه عن ساقيه ، ويعتدل فى سجوده ^(١) ، ويمكن وجهه من الأرض مباشرة به للمصلّى غير ساجد على كور العمامة ^(٢) .

قال أبو حميد الساعدي وعشرة من الصحابة يسمعون كلامه : « كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائماً ورفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ، فإذا أراد أن يركع رفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ، ثم قال : « الله أكبر » فركع ثم اعتدل فلم يصوب رأسه ولم يقنع ووضع يديه على ركبتيه وقال : « سمع الله لمن حمده » ورفع يديه واعتدل حتى رجع كل عظم فى موضعه معتدلاً ، ثم هوى ساجدا وقال : « الله

(١) أخرجه مسلم [٢٣٤/٤٩٤] ، وأحمد فى المسند

[٢٩٤، ٢٨٣/٤] عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه .

(٢) ذكر أبو داود فى المراسيل أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً

يصلّى فى المسجد فسجد بجنبه وقد اعتم على جبهته فحسر

رسول الله ﷺ عن جبهته .

أكبر « ثم جافى عضديه عن إبطه وفتح أصابع رجليه ثم ثنى رجله اليسرى وقعد عليها واعتدل ، حتى يرجع كل عظم فى موضعه معتدلاً ، ثم هوى ساجداً وقال : « الله أكبر » ثم ثنى رجله وقعد واعتدل ؛ حتى يرجع كل عظم فى موضعه ، ثم نهض فصنع فى الركعة الثانية مثل ذلك ، حتى إذا قام من السجدين كبر ورفع يديه ؛ حتى يحاذى بهما منكبيه كما صنع حين افتتح الصلاة ، ثم صنع كذلك حتى إذا كانت الركعة التى تنقضى فيها الصلاة أخرج رجله اليسرى وقعد على شقه متوركاً ثم سلم » (١) .

وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » (٢) .

= وحديث أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يسجد على كور عمامته . قال ابن القيم فى زاد المعاد [٢٣٢/١] : هو من رواية عبد الله بن محرز وهو متروك .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم [٢٠٣/٧٧٢] ، والترمذى [٢٦٢] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه .

وروى أنه كان يزيد عليها : « وبحمده » وربما قال : « اللهم
إني لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي
للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن
الخالقين » وكان يقول أيضًا : « سبحانك اللهم وبحمدك ،
اللهم اغفر لي » وكان يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك لا
إله إلا أنت » .

وكان يقول : « سبح قدوس رب الملائكة والروح » وكان
يقول : « اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله وأوله وآخره ،
وعلانته وسره » وكان يقول : « اللهم إني أعوذ برضاك من
سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى
ثناء عليك أنت كما أثنت على نفسك » ، وكان يجعل
سجوده مناسبًا لقيامه .

ثم يرفع رأسه قائلاً : « الله أكبر » غير رافع يديه ^(١) ، ثم

(١) أخرجه البخاري [٧٣٨] . عن عبد الله بن عمر رضي الله
تعالى عنهما .

يفرش رجله اليسرى ويجلس عليها وينصب اليمنى ويضع يديه على فخذه (١) ، ثم يقول : « اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني » وفي لفظ : « وعافني » بدل « واجبرني » هذا حديث ابن عباس (٢) . وقال حذيفة : كان يقول بين السجدين : « رب اغفر لي » (٣) والحديثان في السنن . وكان يطيل هذه الجلسة حتى يقول القائل : قد أوهم أو قد نسي (٤) .

(١) رواه النسائي [٣٦/٣] ، وأبو داود [٩٥٧] ، وابن حبان [٤٨٥] وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٨٤٤] عن وائل بن حجر رضى الله تعالى عنه .

(٢) رواه أبو داود [٨٥٠] ، والترمذي [٢٨٤] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [٧٥٦] .

(٣) رواه أبو داود [٨٧٤] ، وابن ماجه [٨٩٧] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٧١٤] .

(٤) أخرجه مسلم [١٩٦/٤٧٣] ، وأبو داود [٨٥٣] عن أنس رضى الله تعالى عنه .

ثم يكبر ويسجد غير رافع يديه ، ويصنع فى الثانية مثل ما صنع فى الأولى ، ثم يرفع رأسه مكبراً وينهض على صدور قدميه معتمداً على ركبتيه وفخذه (١) .

وقال مالك بن الحويرث : كان رسول الله ﷺ إذا كان فى وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى قاعداً ، فهذه تسمى جلسة الاستراحة ، ولا ريب أنه ﷺ فعلها ولكن هل فعلها على أنها من سنن الصلاة وهيئاتها كالتجافى وغيره ، أو لحاجته إليها لما أسن وأخذ اللحم ؟ وهذا الثانى أظهر لوجهين : أحدهما : أن فيه جمعاً بينه وبين حديث وائل بن حجر وأبى هريرة أنه كان ينهض على صدور قدميه . والثانى : أن الصحابة الذين كانوا أحرص الناس على

(١) لم أجد دليلاً ، وهو مخالف لما أخرجه البخارى [٨٢٣] ، وأبو داود [٨٤٤] ، والترمذى [٢٨٧] عن مالك بن الحويرث رضى الله تعالى عنه أنه رأى النبى ﷺ يصلى ، فإذا كان فى وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى قاعداً .

.....
مشاهدة أفعاله وهيئات صلاته كانوا ينهضون على صدور
أقدامهم ، فكان عبد الله بن مسعود يقوم على صدور قدميه
فى الصلاة ولا يجلس . رواه البيهقى عنه ، ورواه عن ابن عمر
وابن عباس وابن الزبير وأبى سعيد الخدرى من رواية عطية
العرفى عنهم ، وهو صحيح عن ابن مسعود ولم يكن يرفع
يديه فى هذا القيام .

وكان إذا استتم قائماً أخذ فى القراءة ولم يسكت وانتح
قراءته بالحمد لله رب العالمين .

فإذا جلس فى التشهد الأول جلس مفترشاً كما جلس بين
السجدين ، ويضع يده اليسرى على ركبته اليسرى واليمنى على
فخذة اليمنى ، وأشار بإصبعه السبابة ووضع إبهامه على إصبعه
الوسطى كهيئة الحلقة وجعل بصره إلى موضع إشارته ^(١) ،

(١) رواه أبو داود [٩٩٠] ، وابن حبان فى صحيحه [١٩٤٤]
وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٨٧٤] عن عبد الله بن
الزبير رضى الله تعالى عنه .

وكان يرفع إصبعه السبابة ويحنّيها قليلاً يوحد بها ربه عز وجل .
وذكر أبو داود من حديث ابن عباس عنه رضي الله عنه أنه قال :
هكذا الإخلاص « يشير بإصبعه التي تلى الإبهام » ، « وهكذا
الدعاء » فرفع يديه مدّاً حذو منكبيه ، « وهكذا الابتهاال » فرفع
يديه مدّاً . وقد روى موقوفاً .

ثم كان يقول : « التحيات لله والصلوات والطيبات ،
السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا
وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » وكان يعلمه
أصحابه كما يعلمهم القرآن^(١) .

وكان أيضاً يقول : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات
لله » هذا تشهد ابن عباس^(٢) .

(١) أخرجه البخارى [٦٣٢٨] ، ومسلم [٥٥/٤٠٢] عن ابن
مسعود رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٦٠/٤٠٣] ، وأبو داود [٩٧٤] عن ابن
عباس رضى الله تعالى عنه .

والأول تشهد ابن مسعود وهو أكمل ؛ لأن تشهد ابن مسعود يتضمن جملاً متغايرة ، وتشهد ابن عباس جملة واحدة ، وأيضاً فإنه فى الصحيحين وفيه زيادة الواو ، وكان يعلمهم إياه كما يعلمهم القرآن .

وروى ابن عمر عنه : « التحيات لله الصلوات الطيبات » وفيه أنواع أخرى كلها جائزة .

وكان يخفف هذه الجلسة ، حتى كأنه جالس على الردف وهى : الحجارة المحمأة . ثم يكبر وينهض ويصلى الثالثة والرابعة ويخففهما عن الأولين ، وكان يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وربما زاد عليها أحياناً .

الصلوة وحكم تاركها [ص : ٨٨ - ٢٠٩] .



رحمة الله بعباده

يقول الحق عز وجل : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٧] .

إن الغاية النهائية في كل تكليف إيماني وفي كل عمل أن تنال رضوان الله في الآخرة ، إياك أن يشغلك عن صلوات الله ونحياته وبركاته أى شئ حتى ولو كان انتصاراً لعقيدة ؛ لأن انتصار العقيدة هو وسيلة ينال بها المؤمن صلوات الله ورحمته ، وكل شئ عدا ذلك إنما هو وسيلة للوصول إلى هذا الغاية . إن غاية الغايات أن يفوز المؤمن برضا من أراد له الحياة وأن تكون له الصلوات والرحمة من خالقه سبحانه وتعالى . والصلاة كما نعرف في اللغة هي الدعاء . وللناس صلاة وللملائكة صلاة ، ولله تعالى صلاة ، ولنقرأ قول الحق : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [البقرة : ١٧٧] تَجِئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿ [الأحزاب : ٥٦] .

إن الحق سبحانه يتعهد عباده برحمته ولطفه ، وملائكته
تطلب للصالحين من العباد المغفرة والهداية ، وبهذا يخرج الحق
المؤمنين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ويتلقاهم الله بأمن
وسلام ، ويجزيهم الخير كله ، ونحن نعرف أن الخلق كلهم -
الكافر منهم والمؤمن - إنما يعيشون برحمة الله في الأرض . إننا
نأخذ بأسباب الله التي أرادها الله رحمة منه في الأرض .
المؤمن يأخذ نعم الله المادية ومعها البركة والاطمئنان ، والكافر
يأخذ من نعيم الدنيا على قدر بذله فيها من جهد ، لكنه لا يأخذ
البركة والاطمئنان ، وهما النعمة الكبرى من الله تعالى لعباده .
إن الصلاة من الله عطاء البركة والرحمة ، والصلاة من
الملائكة استغفار ، والصلاة من المؤمنين دعاء ، وصلاة المؤمنين
على رسول الله ﷺ هي دعوة لرسوله بالخير والبركة والرحمة ،
وهو في نفس الوقت دعاء لأنفسهم ؛ لأن كل منزلة ينالها
رسول الله ﷺ تعود على أمته ، وإن كل صلاة من المؤمن
على رسول الله ﷺ يجازى عليها من الله بعشرة ، ثم إن رسول
الله هو الذي سيشفع لنا عند الله يوم القيامة ولذلك فكل

إعلاء لدرجته ﷺ إعلاء لأمته ، وكل خير يناله رسول الله ﷺ هو خير لنا جميعاً لذلك فعندما نصلى على النبي فإننا ندعو له وندعو لأنفسنا ، لأن المؤمن إذا صلى على رسول الله مرة واحدة فإن الله يصلى عليه عشر مرات ^(١) ، وهكذا يكون المؤمنون فى المرتبة التى يتلقون فيها صلوات ربهم ورحمته ، ويكونون هم المهتدين ، أى : أنهم هم الذين التزموا الطريق الموصل إلى الغاية . والغاية هى أن ينالوا صلوات من ربهم ورحمة فيتمتع المؤمن بنعم الله بأسباب الله فى الدنيا ، ويتمتع فى الآخرة بنعم الله جزاء صافياً من الله .



(١) روى أبو داود [١٥٣٠] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ؛ قال رسول الله ﷺ : « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشراً » . وصححه الألبانى .

التعلق برحمة الله

وعندما نبدأ أى عمل نبدؤه « بسم الله الرحمن الرحيم » وانظر إلى رحمة الله بالخلق . فالله سبحانه وتعالى يرفع عن العاصي الحرج فى أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذى عصاه ، وحتى لا يستحى من عصي الله أن يبدأ أى عمل باسم الله وأن يستعينه . نقول : إن الحق سبحانه وتعالى جعلك تقبل على عملك وأنت واثق من الاستجابة ؛ لأن الله هو الرحمن الرحيم فإذا قلت : بسم الله الرحمن الرحيم تعلقت برحمة الله فأعانك على ما تفعل .

والرحمة والرحمن والرحيم : مشتق منها الرحم الذى هو مكان الجنين فى بطن أمه ، هذا المكان الذى يأتيه فيه الرزق بلا حول ولا قوة ، ويجد فيه كل ما يحتاج إليه نموه مُيسراً رزقا من الله سبحانه وتعالى بلا تعب ، ولا مقابل ، انظر إلى حنو الأم على ابنها وحنانها عليه ^(١) ، وتجاوزها عن سيئاته وفرحتها بعودته إليها .

(١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - قَالَ : قَدِيمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبِيٌّ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَشْقِي =

وفى الحديث القدسي : « أنا الرحمن ، خلقت الرِّجَمَ وشَقَقْتُ لها اسمًا من اسمي ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتُهُ » (١) .

وفى قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ هناك ثلاثة أسماء لله تعالى قد وردت فى « البسملة » ،

= إذا وَجَدْتَ صَبِيًّا فى الشَّيْءِ أَخَذْتُهُ فَأَلَصَقْتُهُ بِطَنِيهَا وَأَرْضَعْتُهُ ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِخَةً وَلَدَهَا فى النَّارِ ؟ » . قُلْنَا : لا ، وَهِيَ تُقْبِرُ عَلَى أَنَّ لا تُطْرَحُهُ ، فَقَالَ : « اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا » .

أخرجه البخارى [٥٩٩٩] والنَّفْظُ له ، ومسلم [٢٢/٢٧٥٤] .

(١) رواه أحمد فى المسند [١٩٤/١] عن عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله تعالى عنه . وصححه الشيخ شاكر برقم [١٦٨٦] ، والترمذى [١٩٠٧] ، وقال : حديث صحيح ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٥٥٧] ، . وأخرجه البخارى [٧٥٠٢، ٥٩٨٩، ٥٩٨٨، ٥٩٨٧، ٤٨٣٠] عن أى هريرة ، رضى الله تعالى عنه ، بالفاظ متقاربة .

وفى : « فاتحة الكتاب » ، وهى : ﴿ اَللّٰهُ ﴾ ، و ﴿ اَلْزَمَرْ ﴾ ،
و ﴿ اَلزَّيْمِ ﴾ .

ونحن نعلم أنه : ليس هناك تكرار فى القرآن الكريم ، وإذا
تكرر اللفظ يكون معناه فى كل مرة مختلفاً عن معناه فى المرة
السابقة ؛ لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى ، ولذلك تجد دائماً
اللفظ فى مكانه الصحيح ، وفى معناه الصحيح .

وهناك فرق بين ورود اسم الله تعالى فى البسملة ، وفى
الفاتحة ؛ ففى البسملة ، تقول : ﴿ بِسْمِ اَللّٰهِ ﴾ الذى
نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه ؛ لأن الله هو الذى سخر
كل ما فى هذا الكون ، وجعله يخدمنا ، وفى الفاتحة :
﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ﴾ فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله
على ما فعل لنا .

فكان ﴿ بِسْمِ اَللّٰهِ ﴾ فى البسملة : طلب العون من الله
بكل كمال صفاته ، و ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ﴾ فى الفاتحة : تقديم
الشكر لله بكل كمال صفاته .

كما أن ﴿الزَّكِيَّ الرَّحِيمَ﴾ في البسملة لها معنى غير ﴿الزَّكِيَّ الرَّحِيمَ﴾ في الفاتحة ؛ ففي البسملة تلفتنا إلى رحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه ؛ حتى لا نستحي ، ولا نهاب أن نستعين به سبحانه إن كنا قد فعلنا معصية .

فالله سبحانه وتعالى يريد منا أن نستعين باسمه دائماً في كل أعمالنا ، فإذا سقط واحد منا في معصية ، فلا يقول : كيف أستعين بالله وقد عصيته ؟! نقول له : ادخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة ، فيغفر لك ، واستعن به يُعْثِكَ .

ولولا رحمة الله التي سبقت غضبه ، ما بقي للناس نعمة ، وما عاش أحد على ظهر الأرض ؛ يقول جل جلاله : ﴿ وَلَوْ يُوَاسِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ [النحل] .

فالإنسان خُلِقَ ضعيفًا ، وخُلِقَ هُلُوعًا ، والرسول ﷺ يقول : « لن يُدخل أحدًا منكم عمله الجنة » ، قالوا : ولا أنت

يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه
بفضل ورحمة » (١) .

فذنوب الإنسان في الدنيا كثيرة ، إذا حكم فقد يظلم ، وإذا
ظن فقد يسيء ، وإذا تحدث فقد يكذب ، وإذا شهد فقد
يبتعد عن الحق ، وإذا تكلم فقد يفتاب .

هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة ، ولا يمكن لأحد منا
أن ينسب الكمال لنفسه ، حتى الذين يذلون أقصى جهدهم
في الطاعة لا يصلون إلى درجة الكمال ، فالكمال لله وحده .
ورسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ
التَّوَّابُونَ » (٢) .

(١) أخرجه البخارى [٦٤٦٢] ، ومسلم [٧٥/٢٨١٦] واللفظ له ،
عن أبي هريرة ، رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [١٩٨/٣] والترمذى [٢٤٩٩] ،
وقال : حديث غريب ، وابن ماجه [٢٤٥١] عن أنس بن مالك
رضى الله تعالى عنه واللفظ له ، وقال الألبانى فى صحيح
الترمذى [٢٠٢٩] : حسن .

ولما كان الإنسان ظلوماً جهولاً^(١) ، أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعلمه أن يبدأ كل عمل باسم الله ، فعلمنا أن نقول : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ؛ لكي نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله ، وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة في كل عمل باسم الله ؛ لأنه سبحانه ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية في الاستعانة به سبحانه وتعالى .

و ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ في الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذي أوجدك من عدم ، وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى ، أنت تحمده على هذه النعم التي أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى في ربوبيته ، والله سبحانه وتعالى ربّ للمؤمن والكافر ، وهو الذي خلقهم ؛ لذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته ، وليس بما يستحقون ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ، والمطر ينزل على من

(١) قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

[الأعراب : ٧٢] .

يعبدون الله ، وعلى من يعبدون أوثاناً من دون الله ، والهواء جعله الله لمن قال : لا إله إلا الله ومن جحد بها .

إذن .. كل النعم التي هي من عطاء الربوبية هي في الدنيا لخلق الله جميعاً ، وهذه رحمة منه سبحانه ؛ لأنه هو ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ رب الجميع ، من أطاعه ومن عصاه .

وقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الله محمود لذاته ، ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه . فالله تعالى محمود قبل أن يخلق من يحمده ، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الثناء عليه في كلمتين اثنتين هما : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

والعجيب أنك حين تشكر بشراً على جميل فعله تظل ساعات وساعات ، تُعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف ، وتأخذ رأي الناس ، حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر . ولكن الله - سبحانه وتعالى ، جلت قدرته ، وتعالى عظمته الذي نعمه لا تُعد ولا تُحصى - علمنا أن نشكره في كلمتين اثنتين هما : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركنا دون أن نعلمنا إياها ، لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهي ، فمهما أوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير ، فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التي تليق بجلال المنعم ، فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته؟! وفي الحديث : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (١) .



(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٢٢/٤٨٦] ، وأبو داود [٨٧٩] ، والنسائي في المجتبى [٢١٠/٢] ، وابن ماجه [٣٨٤١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

صفة الرحمة

المؤمنون والمؤمنات الذين هم أولياء بعض الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله هؤلاء سيرحمهم الله . ما هو الأبلغ أن يقال : « أولئك يرحمهم الله » أو ﴿ سَيَّرَحِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] الأبلغ أن يقال ما قاله رب العزة سبحانه : ﴿ سَيَّرَحِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ لأن السببية تعطى استطلالة زمن ، وبذلك سيكون أمل المؤمن دائماً فى رحمة الله . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] أى : أن الود سيكون مستمراً حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم استشهد . والله سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى : ٥] ولم يقل : يعطيك ربك ؛ لأن العطاء مستمر . وأنت عندما تتهدد أحداً لا تقول له : « أنا أنتقم منك » بل تقول له : « سأنتقم منك » يعنى : الانتقام

مستمر مع الزمن . فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ تعطى أن صفة الرحمة فى الحق جل جلاله أعلى من صفة الرحمة فى المخلوق . ذلك لأن التراحم من الحق جل جلاله أعلى من صفة الرحمة فى المخلوق ، فالتراحم من الخلق تراحم على قدر الأسباب ، وإنما الرحمة من الحق سبحانه وتعالى هى من صفات الكمال التى لا تنتهى ولا تنتهى . والرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢] فالاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى تشقى الإنسان ، ولكن الشفاء سلامة فى أول الأمر والرحمة ممتدة لا يأتى بعدها داء أبداً .



رحمة الله في الدنيا والآخرة

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿عَذَابٌ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف] . إن الحق سبحانه وتعالى يلفت موسى عليه السلام ويلفتنا جميعاً إلى طلاقة قدرته ، فطلاقة قدرة الله بلا قيود وبلا حدود ، ولذلك فعذابه يصيب به من يشاء ، فليس الذنب موجباً للعذاب إذا تاب المذنب وقبل الله توبته وغفر له ، ولذلك فإن الله يتوب على المذنبين والعاصين الذين تابوا ورجعوا إلى الطريق المستقيم ، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى : رحمتى فى الدنيا أعطيها للطائع والعاصى ، والمؤمن وغير المؤمن ، ولكنها خالصة يوم القيامة للمؤمنين ، وهنا قال بعض أحبار اليهود : « ما دامت رحمة الله قد وسعت كل شيء ، فإنها تسعنا لأننا شيء » نقول : « نعم رحمة الدنيا التى وسعت كل شيء تسعكم » .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ كلمة : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ أثارت جدلاً
كثيراً فالسين هنا دلت على زمن قادم ، وإذا كانت رحمة الله
وسعت كل شيء في الدنيا وسيكتبها دليل على أن ذلك في
الآخرة وطبعاً الحق كتبها بالفعل وانتهى ، ولكنها ما زالت غيباً
بالنسبة لنا. نعود إلى أحبار اليهود قالوا : ما دامت رحمة الله
وسعت كل شيء وسيكتبها للذين يتقون فنحن متقون . إذن
فعندنا كم حالة ؟ الحالة الأولى : أنهم قالوا : نحن شيء
فالرحمة تسعنا ، والرد : الرحمة تسعكم في الدنيا ، فالكل
فيها ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ قالوا :
نحن متقون في منهج موسى ، نقول لهم لو كنتم متقين في
منهج موسى لآمتتم بمحمد الذي تجدونه مكتوباً عندكم في
التوراة ؛ لأنه من تعاليم موسى أن تؤمنوا بمحمد عليه الصلاة
والسلام .



الهدى والرحمة

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [الأنعام : ١٥٤]
ما هو الهدى وما هى الرحمة ؟ الهدى : هو الدلالة على
الغاية ، ولماذا جعل الله لنا دلالة على طريق الإيمان أو على
الغاية ؟ لو أن المسألة سارت بفطرة الإيمان فآدم تلقى عن ربه
فبلغ أبناءه ، وأبناؤه أبلغوا أبناءهم ، وهكذا جيل بعد جيل ما
كانت هناك حاجة للرسالات السماوية ، ولكن مع الزمن بدأ
الطريق الإيماني يقل ، فهذا خالف وهذا نسى ، وهذا بدل
وغير ليحقق نفعاً ذاتياً . وكان على كل واحد منا كما يعلم
أولاده كيف يأكلون وكيف يشربون أن يعلمهم أيضاً أمور
القيم . ولكن الناس حرصت على الدنيا وغفلت عن منهج الله
فالحق سبحانه وتعالى - رحمة بغفلتنا ونسياننا وتبديلنا
لأحكامه - أرسل الرسل هدى جديداً ليذكركم بمنهج
ويصحح لنا ما قد حرف ويظهر لنا ما قد أخفى حتى لا تكون
لنا حجة يوم القيامة فى أن أجدادنا وآباءنا هم الذين بدلوا
وحرفوا ونحن كنا ذرية من بعدهم فاتبعنا ما بلغوه لنا فكيف

يحاسبنا الله بذنوب أجدادنا وآبائنا ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوْ فَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٣] ^(١) .

(١) روى أبو داود [٤٧٠٣] وصححه الألبانى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم مسح ظهره يمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، ويعمل أهل الجنة يعملون » فقال رجل : يا رسول الله ، فقيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » .

وجاء فى تفسير الوسيط [٤٢٤/٢-٤٢٦] وعن ابن عباس عن النبى ﷺ - أخذ الله عز وجل الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنشرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً معاينة فقال : أأست برهكم ؟ قالوا : =

= ﴿يَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ نَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ تلاها إلى قوله : ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ .

وعنه رضى الله تعالى عنه : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فأخرج من ظهره كل نسمه هو خالقها إلى يوم القيامة ، فقال : ألسنت برهكم ؟ قالوا : بلى ، فنودى يومئذ أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

قال المفسرون : وهذه الآية تذكير بما أخذ على جميع المكلفين من الميثاق واحتجاج عليهم لئلا يقول الكفار إنا عن هذا الميثاق غافلين لم نحفظه ولم نذكره ، ونسيانهم لا يسقط الاحتجاج بعد أن أخبر بذلك على لسان صاحب المعجزة ، وإذا صبح ذلك يقول الصادق قام فى النفوس مقام الذكر ، فالاحتجاج به قائم ، ثم قطع عذر الكفار بقوله : ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ، لا يستطيع أحد من الفرقة الكافرة أن يقول يوم القيامة : إنما أشرك آباؤنا من قلنا ، ونقضوا العهد ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فاعتدنا بهم ﴿أَفَنُكِّنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أفتعدنا بما فعل المشركون المكذبون بالتوحيد ؟ فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله بأخذ الميثاق بالتوحيد على كل واحد من الذرية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ يُلَقَّاهُ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٤] لماذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ لِّعَالَمِهِمْ ﴾ ؛ لأنه إذا كان عدم اتباعهم لتشريعات الله إنما عن عدم علم فستتضح في ذهنهم الصورة ، وأنهم ملاقوا الله وما دامت انضحت في ذهنهم الصورة ، فإنهم سيحسبون لذلك ألف حساب . تماماً كالطالب الذى يعرف أنه سيذهب إلى الامتحان ، يكون هذا فى باله كل لحظة فلا ينام ويجهتد فى المذاكرة ، أما الذى ليس فى ذهنه الامتحان وليس متنبهاً له ، فسيقضى وقته فى اللعب والنوم ؛ إذ إن الغايات تجعل الإنسان يقبل على الوسائل ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ألا من يرى غايتى قبل مذهبي ومن أين والغايات قبل المذاهب
نقول له : « ألا من يرى غايتى قبل مذهبي » كلام صحيح
أما أن « الغايات قبل المذاهب » فالله شرع الغايات أولاً ، وبعد ذلك جعل لها السبيل .

إذن .. فاستخدام قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لِّعَالَمِهِمْ يُلَقَّاهُ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٥٤] أى : لعل هذه الرسالات السماوية تجعلهم يوقنون بقاء ربهم ، فيعملون لهذا اللقاء ألف حساب .

الاختلاف والرحمة

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ ﴾ [هود: ١١٨] والناس هم : بنو آدم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ ﴾ أى : أمة مقهورة مثل باقى أجناس الأرض من الجماد والحيوان والنبات . قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ ﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنِّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ ﴾ [هود] أى سيظلون مختلفين ؛ لأن لهم الاختيار لن يسلبه الله منهم ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ هل خلقهم للرحمة أو للاختلاف ؟ قلنا : إن ساعة ترى اسم إشارة أو ضميراً عائداً على كلام متقدم ننظر ماذا تقدم ؟ الذى تقدم هو : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ ﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ ﴿ ﴾ أى للاختلاف والرحمة للآثنين كيف ؟ الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن خلق الإنسان قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْنَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ومعنى العبادة : طاعة الله فى افعـل ولا تفعل ، إذن فمراد الله الشرعى من الخلق هو للعبادة ، ولكن هناك مراد كونى لله سبحانه وتعالى وهو أن يكون الإنسان مختاراً وحدث من الاختيار اختلاف ، والاختلاف ناشئ عن تعدد الأهواء ، فلو أن لنا هوى واحداً كنا لا نختلف ، ولكن نحن نختلف ، لأن لكل واحد منا غرضاً ، والله تبارك وتعالى يحذرنا من ذلك ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْهَوَى أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون : ٧١] فلو فعل كل منا ما يشتهيـه تصادم الأهواء ، ويفسد العالم . إذن فالعالم لا يستقيم إلا إذا كان حلقتـه الاختيارية على هوى واحد ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ^(١) فاتباع المنهج وعدم إخضاعه للهوى هو الذى يحفظ حركة الحياة ، على أننا يجب أن نلاحظ أن الأشياء التى بها حركة الحياة دون التكليف فيها اختيار ،

(١) قال الحافظ فى الفتح : أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات ؛ وقد صححه النووى فى آخر الأربعين .

فالعالم لا يستقيم إذا كنا جميعاً صنفاً مكرراً ؛ إذ لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو شعراء فمن الذى يفلح الأرض ؟ ومن الذى يعد الطعام ؟ ومن الذى يصنع لنا ما نحتاج إليه ؟ إذن .. فحركة الحياة لابد أن يكون فيها اختلاف باختلاف مواهب ، واختلاف مواقع ؛ لأن الأمر الذى ليس لى فيه مواهب فأنا محتاج لمن له فيه موهبة ، وغيرى محتاج إلى فيما أنا فيه موهوب ، والعالم ارتبط كله ببعضه ارتباط حاجة وضرورة ، والاختلاف فى حركة الحياة على هذا النحو هدف من أهداف الشرع ليستقيم هذا الكون .

واقراً قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَهْمَرِ يَفْسِمُونَ رَحِمْتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْخَذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَخِرَآءُ ﴾ [الزخرف: ٣٢] فكأن رفع الدرجات ليكون كل منا مسخراً لخدمة الآخر فى كل شئون الحياة ، ولكن الناس لا تنظر إلا للغنى والفقير فقط وهذه نظرة حمقاء ، فالله سبحانه وتعالى لم يبين لنا من هو البعض المرفوع عليه ، ومن هو البعض المرفوع ، فكل إنسان فى جهته مرفوع عليك فيما لا تحسنه ، وأنت مرفوع على الناس فى موهبتك .

إذن .. فلا بد أن نختلف من أجل المجتمع ، ولذلك فإنك تجد خواطر الناس تختلف ، كما تظهر نتيجة الثانوية العامة مثلاً ، كل إنسان يريد أن يتوجه وجهة مختلفة ، هذا يريد الطب ، هذا يريد الهندسة وذاك يريد أن يتوجه وجهة مختلفة ، وذلك يريد التجارة كل حسب موهبته ، وكل إنسان معد إعداداً من خالقه ليتفوق فى موهبته ويفعل أشياء لا يستطيع أن يتقنها غيره ، فهناك من يتقن نظافة الطريق ومن يتقن حمل الأثقال « عتال مثلاً » ومن يهوى أن يعمل سائقاً ، فحركة الحياة محتاجة لكل هذه المواهب ، والإنسان فى مواهبه متكامل ، أى مجموع المواهب عند أحدها يساوى المجموع عند آخر . فمن أعطاه الله درجة عالية فى التجارة مثلاً لا يستطيع أن يصنع شيئاً ، والصانع إذا تاجر أفلس ، لو أنك أعطيت درجات بحيث إن مجموع الإنسان يساوى ١٠/١ فإنك تجد أن درجتنا جميعاً ١٠/١٠ ولكن هذا يأخذ فى العلم ١٠/٧ وباقى الدرجات فى المواهب الأخرى ، وهذا يأخذ ١٠/٧ وباقى الدرجات فى المواهب الأخرى ، وهذا يأخذ فى حياكة

التياب ١٠/٧ ومجموع كل منها فى النهاية ١٠/١٠
 فالإنسان الثرى قد تتعطل به السيارة ، فيذهب إلى محل
 ميكانيكى مرفوعاً عليه يقول له : أنا مشغول ، فيقول له
 راجعنى بعد يومين أو ثلاثة ، وهذا الذى يرجو ويرجو ،
 وتوزيع المواهب فى الكون يجعل الكون يعتدل ، فلا أحد
 يأخذه الغرور بما هو متفوق فيه ؛ لأنه سيجد غيره متفوقاً عليه
 فى أشياء كثيرة ، والله سبحانه وتعالى لا يميز أحداً على أحد ،
 فكلنا عبيده وهو ليس له صاحبة ولا ولد ، واختلاف المواهب
 بين الناس فى الكون ليس تمييزاً بين الناس ولكنه تكامل .

وكنا قد تحدثنا عن السباك الذى يصبح سيد الموقف بالنسبة
 لسكان قصر كبير ملأته مياه المجارى . الله تبارك وتعالى حين
 يقول : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [مرد : ١١٨] لا يعنى أنهم
 مختلفون فى حياتهم فقط ، بل مختلفون فى المنهج ، مختلفون
 فى الإيمان والكفر ، مختلفون فى الطاعة والمعصية . والله
 تبارك وتعالى إذا لم يرد الكفر ما وجد كفر فى كونه ، ولكن
 الكفر لابد أن يوجد ليبين لك حلاوة الإيمان ، كما أن الفساد

لا بد أن يوجد ليبين لك جمال الصراط المستقيم ، ولا بد أن تذوق نار الشر لتعرف حلاوة الخير . ولقد قلنا : إن الكفر يدعو للإيمان كما أن الألم رسول العافية ؛ لأنه ينبهك إلى المرض ، فلو لا الألم لظل المرض يأكل جسدك . إذن فالألم هو داعي العافية وكل شئ فى الكون له مهمة ، ومن الرحمة أن كل شئ فى الكون يؤدي مهمته ، والاختلاف فى المواهب بين الناس هو عين الوفاق . ولنفترض أنني اعتدت أن آكل صدر دجاجة ، وأنت اعتدت أن تأكل وركها ، هذا خلاف فى ظاهره ، ولكنه وفاق فى باطنه ؛ لأن الدجاجة ستكفينا ولن نختلف ، ولو أننا اتفقنا فى أشياء كثيرة لحدث تراحم عليها ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ١٥٠ إلا من رَّحِمَ رَبُّكَ ... ١٥١ ﴿ وإذا سألنا إنساناً هل الخلف للاختلاف أم الخلف للرحمة ؟ نقول : اختلاف المواهب رحمة بالخلق .



من رحمة الله أن جعل الرسول من البشر

والله سبحانه وتعالى خلق للإنسان السموات والأرض وما فيهن ، وجعل كل هذه النعم في خدمة الإنسان يتمتع بها قبل أن يكلفه الله بتكاليف الإيمان ، إذن فالله سبحانه وتعالى يريد الخير والسعادة لخلق من البشر ، والآية الكريمة تقول : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨] أى أن الرسول الذى جاء لم يأت من جنس آخر كالملائكة مثلاً ، ولكنه بشر رسول ، وما دام الرسول بشراً فإذا قال لكم : افعلوا كذا فإنه سيكون أسوة لكم ، أى أول من يفعل ، وما دام الرسول بشراً وقد فعل يكون التكليف فى قدرة البشر أن يفعلوه ، ولذلك كان من غباء الكافرين أن جعلوا بشرية الرسول سبباً لعدم الإيمان مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤] .

ثم يفند الحق سبحانه وتعالى حجتهم بأنهم كانوا يريدون ملكاً رسولاً فيقول جل جلاله : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام : ٩] أى أن الحق سبحانه وتعالى لو أرسل رسولاً من الملائكة فإن الناس لن تراه ؛ لأننا لا نرى الملائكة ، ولذلك لا بد أن يتشكل فى صورة إنسان بشر حتى يمكنه أن يدعو البشر للإيمان ، فتكون نفس المشكلة قائمة فى أنكم سترونه بشراً والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . فإذا جاء الرسول الملك ليعلم الناس الدين قالوا : أنت مخلوق على الطاعة ليس لك شهوات ، ونحن مخلوقون على الطاعة والمعصية ، ولنا شهوات نأكل الطعام ونتناسل ، إذن فنحن لا نستطيع أن نفتدى بك لاختلاف طبيعة الخلق ، لقد جئتنا بما لا نقدر على تحمله .

إذن فمن رحمة الله بخلقه أن جاءهم برسول بشر من أنفسهم ، وفى هذه الحالة تكونون أنتم أول أذن تستمع لدعوته ، فتكون معجزة القرآن بلسانكم . إذن فالرحمة الأولى : أنه بشر والرحمة الثانية أنه يأتى بالدعوة بلسانكم والرحمة الثالثة أنه من

قريش ، القبيلة التى لها قرابات فى كل مكان ، والرحمة الرابعة : أنه نشأ بينكم تعرفون سلوكه وأمانته ، وأنه لم يكذب على بشر قط فهل يكذب على الله ؟ إنه رسول إذا قستموه بكل مقاييس البشرية تجدونه أفضلكم فى كل خصاله ، ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ بدعوة من الله هل انتظرت خديجة رضى الله عنها أن يأتى لها محمد بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن الله ؟ هل انتظر أبو بكر رضى الله عنه أن يأتى له محمد بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن الله ؟ أبداً لم ينتظرا ؛ لأنهما أخذتا المعجزة من تاريخ رسول الله عليه الصلاة والسلام وأمانته وصدقه فيما يقول ، ولذلك عندما قال لهما : إنه رسول الله صدقاه على الفور ؛ لأنه لم يكذب قط . فكيف يكذب على الله ؟

إن خديجة رضى الله تعالى عنها حينما أخبرها رسول الله ﷺ بما رأى فى الغار - وخديجة كانت ناضجة الفكر ناضجة التكوين - قالت : والله لا يخزيك الله أبداً وصدفته . ولقد اختار الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ أن يتزوج خديجة رضى الله تعالى عنها وهو فى سن الخامسة والعشرين ، وهى فى سن

الأربعين ، مع أن المؤلف أن الانسان يحب أن يتزوج بمن هي أصغر منه ، ولكن هدف الزواج لم يكن مجرد متعة ، فلم يكن زواجا عاديا ، بل كان زواجا أعد بقدر الله ليكون مسكينة لرسوله عليه الصلاة والسلام في الفترة الانتقالية التي سيمر بها من بشرية عادية إلى بشرية تتلقى الوحي من السماء .

هذا التغير الهائل كان رسول الله ﷺ محتاجاً فيه إلى قلب أم ، وصدر أم ، وتفهم أم ، ووعي أم ، تستطيع أن تعالج الموقف بحكمة السنوات ، والنضوج العقلي الذي كان لازماً خلال هذه المرحلة .

ولو كانت خديجة فتاة صغيرة طائشة لهربت من أول يوم عاد فيه رسول الله ﷺ من الغار وهو يرتجف ، لهربت أو اتهمته اتهامات شتى ؛ ذلك أن عقلها لم يكن في هذه الحالة يمكن أن يستوعب تلك التجربة الهائلة التي يمر بها أشرف خلق الله من البشرية العادية إلى البشرية التي تختلط بالملائكة ، وتتلقى عن الله بواسطة الملك ، ولذلك عندما قال لها رسول الله ﷺ بعد أن رأى جبريل في الغار : إني أخاف أن يكون الذي يأتيني رقيب من الجن . قالت : إنك لتصل الرحم

وتكسب المعدم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً . وكان لابد لكى تقول خديجة هذا الكلام وتكون صدراً حنوناً لرسول الله ﷺ أن تكون ناضجة العقل والفكر قد صقلتها السنون ، تملك العقل الواعى الذى يستطيع أن يميز وأن يختار ، لا يكون فيها طيش شباب ، ولا رعونة فتاة صغيرة قد تهزها الأحداث فتجعلها تنهار تماماً فى هذه الفترة الحرجة من حياة رسول الله ﷺ وكان يتعين أيضاً أن يكون هذا هو رأى قريش وأهل مكة ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ... ﴾ (الفتح : ٢٩) فمحمد : مبتدأ ورسول الله : خبر محمد ، ابتداءً كان فيكم الصادق الأمين الذى تربي على عين الله وأراد الله أن يحفظه فيكم صغيراً وكبيراً حتى قيل : إنه كلما هم بعمل كحمل أحجار الكعبة عند البناء مثل أقرانه وكانت تظهر عوراتهم عند رفع الثياب ، كان يأتى لمحمد صوت ينبهه إلى ذلك فيقول : يا محمد : عورتك عورتك ، وكانت فيه تلك الصفات التى عددها سيدتنا خديجة ، وهذا كما قلنا ابتداءً ؛ لذا كان يتعين أن تصدقوه فى خبر السماء بأنه رسول الله .

ومن رحمة الله أن يجعل رسوله عليه السلام
بالمؤمنين رؤفاً رحيماً

يقول الحق سبحانه وتعالى مخبراً عنه عليه السلام : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]
هنا نجد كلمة الرأفة والرحمة من جانب النبي عليه السلام جاءت للمؤمنين فقط ، أما الأوصاف الأولى فقد شملت الجميع .
لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى : ﴿ فَلَمَّا كَانَ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ نَفْسِكَ عَلَىٰ مَا نَذَرْتَهُمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] أي : إنك حزين ومهموم بسبب أنهم لم يؤمنوا ، مع أنه لن ينالك شيء فأنت ليس عليك إلا البلاغ فقط ، وقد بلغت فلماذا تحزن عليهم ؟ فالنبي عليه السلام لم يكن حزيناً منهم ولكنه كان حزيناً من أجلهم ومشفقاً عليهم ؛ لأنه عليه السلام رحمة مهداة للعالمين فكان حريصاً على أن يرى قومه مؤمنين ؛ لأنه لحبه لقومه وعشيرته كان يريد لهم أن يذوقوا حلاوة الإيمان ، ويسعدوا بالحياة في ظل منهج السماء ،

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى: ﴿لَمَّا كَفَتْ بَرِيَّةٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝﴾ إِن شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَائَةٍ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝﴾ [الشراء] أى : لانفهم أن إيمانهم صعب علينا ، فلو أردناهم مؤمنين لآمنوا فى الحال ؛ لكن حكمة الله اقتضت ألا يقهر أحداً على الإيمان ؛ لأن الإيمان يأتى بقلوب ، والقهر يأتى بقوالب ، والله يريد أن يأتية الناس مختارين وعن حب لا عن قهر ؛ لأن القهر من القاهر يثبت له قدرة ولكن لا يثبت له محبوبة .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبة العابد للمعبود ، من أجل ذلك كله فلا تحزن أو تتعب نفسك من أجلهم ؛ لأن الرسول ﷺ كان يكلف نفسه الصعب فى سبيل نشر الدعوة وزيادة أتباع الدين الخفيف ، ولذلك حينما جاءه رجل مؤمن هو عبد الله بن أم مكتوم يسأله عن قضية الإيمان هذا رجل مؤمن لن يكلفه مشقة فى الحوار أو الجدل ؛ لأنه مؤمن نجد الرسول ﷺ يلوى عنه قلبه وينشغل بمحاورة صناديد قريش المعاندين المكابرين لأنه يؤثر جانب المشقة على

نفسه ولذلك عتب عليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ﴾^(١) أن جاءه الأعمى ﴿﴾ [عبس] فكأن الله سبحانه وتعالى يقول له : لماذا تتعب نفسك مع هؤلاء المعاندين إنهم لا يستحقون ذلك ، أترك السهل « ابن أم مكتوم » وتذهب للمشقة ؟^(٢) وذلك مثلما يكون عندك ابن في المدرسة ، وظل يذاكر عدة ساعات حتى غلبه النوم ، ولكنه يقاوم النوم حتى يسقط الكتاب من يده عدة مرات ، فتقوم أنت وتأخذ منه الكتاب وتأمره بأن ينام ليستريح ، فأنت لم تنهره عن المذاكرة في حد ذاتها ، ولكنك لا تريده أن يرهق نفسه فيعرض .

فكذلك ربنا سبحانه - ولله المثل الأعلى - لا يريد لرسوله ﷺ أن يتعب نفسه مع هؤلاء الكافرين المعاندين ، وينبئه إلى توجيه هذا الجهد وهذا العطف والحنان الموجه إلى غير مستحقه إلى المستحقين من المؤمنين ، وذلك بخفض جناحه لهم ؛ حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] لأن كل حركة نزوعية من الإنسان تحتاج إلى عملية وجدانية أولاً ، فإذا أردت مثلاً أن تكرم إنساناً تأتى صورة الإكرام فى ذهنك

ثم تقوم بتنفيذها بعد ذلك . إذن فكل حركة يصنعها الإنسان نزوعاً تحتاج إلى طاقة داخلية تهئ لها وتدفعها ، فإذا كان الرسول ﷺ سيعجز عن هؤلاء ، فهذا الحزن سيأخذ منه طاقة ، فقال له سبحانه وتعالى : وَفَرَّ هَذِهِ الطَّاقَةُ مِنْ عِنْدِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَهَا وَجْهَهَا لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا بَلْ وَجْهَهَا خَفَضَ جَنَاحَ ، فالرسول ﷺ الذي جاء ليأخذ بيدنا إلى نور الهداية وإلى طريق الجنة هو الذي يخفض الجناح . انظر للحنان والعطف بين المؤمنين فهو لم يجعلك فقط تتوجه بقلبك ، على استقامة قلبك لا بل جعلك تخفض القلب أيضاً .

وكلمة « خفض الجناح » مأخوذة من خفض جناح الطائر ، فهو يرفع جناحه عندما يطير ، لكن عندما يحنو على فرخه الصغير يخفض جناحه ويلويه عليه عطفاً وحناناً ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] يدل على أن الرسائل ما جاءت لتعالى الرسول على المرسل إليهم ، إنما جاءت لخدمتهم ، ولذلك تجد أقارب النبي ﷺ يحرمون من الأشياء الواجبة لغيرهم ، فأقارب النبي الفقراء لا نعطيهم زكاة ؛ لأن المسألة ليست مسألة قرابة ، حيث كان القريب هو الذي

يشقى ويتعب وهو الذى يدفع الثمن إنما الآن نجد القريب الآن هو الذى يأخذ أولاً لأنه قريب مسئول أو غيره وخفض الجناح لمن آمن لا يورثه كبرا عليك بل يزيده أدبا معك فالمؤمن إذا رأى أخاه خفض له الجناح فلا يقابله بالكبر ولو قابله بالكبر فستكون النتيجة عكسية ولذلك يقولون: « إذا عز أخوك فهن » ولذلك قال الشاعر العربى حتى قبل ظهور الإسلام :

صفحنا عن بنى ذهل	وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجع	من قوماً كالذى كانوا
فلما صرّح الشر	وأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث	غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين	واضعاف وإقران
وطعن كقم الزق	غدا والزق ملآن
وبعض الحلم عند الجهد	ل للذلة إذعان
وفى الشر نجاة حية	من لا بنجيك إحسان

فأنا أخفض جناحي للمؤمن الذى ساعة أخفض له جناحي
بخفض لى الجناحين .

(١) مجمع الأمثال للميداني ؛ الجزء الأول فيما أوله همزة .

ولذلك فالقرآن حينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهج ولا يعطيه طبعاً واحداً يتعامل به مع كل الناس ، إنما يجعل طبعه الخلقى مطابقاً لمواقف الناس منه ، ولذلك يقول الحق وتعالى:

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ويقول أيضاً :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩]

فالإسلام لم يطبع المؤمن على الشدة ولا على العزة لأنه لو طبعه على الشدة لاشتد حتى على من كان معه من المؤمنين ولو طبعه على العزة لاعتز على المؤمن ، ولكنه يريده إنساناً يتفاعل مع المواقف ، فالموقف الذى يحتاج إلى شدة يشتد فيه والموقف الذى يحتاج إلى اللين يلين فيه ، أى يضع الشئ فى موضعه .



سعة رحمة الله تعالى

أخرج مسلم [١٤/٢٧٥١] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله الخلق ، كتب فى كتاب ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى »^(١) .
وعنده [١٧/٢٧٥٢] عنه رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبه »^(٢) .

وعنده [٢٢/٢٧٥٤] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ؛ أنه قال : قَدِمَ على رسول الله ﷺ يسئى ، فإذا امرأة من السبي تبغى ، إذا وجدت صبيا فى السبي ، أخذته فألصقته

(١) ووافقه البخارى [٣١٩٤] ، وابن ماجه [٤٢٩٥] .

(٢) ورواه ابن ماجه [٤٢٩٣] .

بيطنها وأرضعته . فقال لنا رسول الله ﷺ : « أَتَرَوْنَ هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ » قلنا : لا . والله ! وهى تقدر على أن لا تطرحه . فقال رسول الله ﷺ : « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (١) .

وعنده [٢٤/٢٧٥٦] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله : إذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذابا لا يعذبه أحدًا من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم ، فأمر الله البر فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : ليم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب ! وأنت أعلم ، فقَفَرَ الله له (٢) .

(١) ووافقه البخارى [٥٩٩٩] .

(٢) ووافقه البخارى [٧٥٠٦] وقال الإمام النووى فى تعليقه على هذه الأحاديث : هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين .

= قال العلماء : لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار - المبنية على الأكدار - بالإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به ، فكيف الظن بمائة رحمة في الدار الآخرة وهي دار القرار ودار الجزاء .
شرح النووي على مسلم [٨٤/٩] .

قلت : على المسلم أن يضم إلى ذلك حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، الذي أخرجه مسلم [١٣٥/٢٦١٩] ، ولفظه : أن رسول الله ﷺ قال : « دخلت امرأة النار من جراء هرة ، أو هر ربطتها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض ، حتى ماتت هزلاً » . ليجمع الخوف والرجاء .

وهذا معنى كلام ابن شهاب الزهري : « ذلك لئلا يتكل رجل ، ولا يئس رجل » .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٣
التوبة ضرورة لحركة الحياة	٢١
الله تعالى يفرح بتوبة عبده	٢٥
أنواع التوبة	٢٧
شرائط التوبة	٢٩
حقائق التوبة	٣٦
علامات صحة التوبة	٣٩
جزاء المعرض عن التوبة	٤٣
الاستعانة بالصبر والصلاة	٤٥
الصلاة .. وتكفير الذنوب	٧٠
الصلاة تُفرج الهموم	٧٤
الكسل عن الصلاة علامة من علامات النفاق	٩١

صفة صلاة النبي ﷺ	
من التكبير حتى التسليم كأنك تراها	٩٥
رحمة الله تعالى بعباده	١٢٤
التعلق برحمة الله	١٢٧
صفة الرحمة	١٣٥
رحمة الله في الدنيا والآخرة	١٣٧
الهدى والرحمة	١٣٩
الاختلاف والرحمة	١٤٣
من رحمة الله أن جعل الرسول من البشر	١٤٩
ومن رحمة الله أن يجعل رسوله ﷺ	
بالمؤمنين رؤفاً رحيماً	١٥٤
سعة رحمة الله تعالى	١٦٠
الفهرس	١٦٣

